

سوزانا هاروتونيان

رواية

غريبان ما قبل نوح

ترجمة: مدحت طه

سكافا
SESAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SESAFX.NET

غربان ما قبل نوح

رواية

سوزانا هاروتونيان
ترجمة: مدحت طه

مدحت طه حسن/ شاعر ومترجم وناقد مصري من مواليد عام ١٩٥٦، تخرج من كلية الطب بجامعة عين شمس ومارس الكتابة والترجمة الأدبية بجانب الطب، حيث ترجم أعمالاً لكبار كتاب اللغة الإنجليزية، مثل *الطفل الخامس* للفائزة بنوبل دوريس ليسنج، و*قلب الظلام* لجوزيف كونراد.

طبعة ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقْتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر: محمد البعلي

إخراج فني: علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

© Մուսանձա Հարուրդունյան

.Agreement by ARI Literary and Talent Agency

The book is published with the support of the Ministry of Education,* Science, Culture and Sports of the Republic of Armenia in the frames

.*of *Armenian Literature in Translations' Program

نشر الكتاب بدعم من وزارة التعليم والعلوم والثقافة والرياضة في جمهورية أرمينيا في إطار برنامج ترجمة الأدب الأرمني.

غربان ما قبل نوح

وعدت بقتل الطفل بمجرد أن يولد. كان المفترض أن أجرها لتوليد المرأة ثلاثين بيضة؛ نصفها من بيض الدجاج التركي، رغم أن عمليات توليدها عادة ما انتهت بمنحها عشر بيضات نعام، وتظل تصب كل اللعنات على الطفل الذي يُسيء أو تُسيء التصرف (اللجنة على المُولدة *القابلة* التي جلبتك لهذا العالم.. كانوا يهتقون بذلك مؤمنين بأن أول شخص لمس الرضيع قد مرر صفاته الشخصية إلى الرضيع). كان قتل طفل وليد أغلى تكلفة – في حالتها – فتلقت شالاً أخضر في اليوم الذي اجتمعت فيه النساء في ذلك الربيع حين رأين *ناخشون* تضعف، وتجتو على ركبتيها، وتتأوه متألماً. أمسكت بها اثنتان من السيدات من ذراعيها وجروها للبيت، بينما أشارت زوجة البناء إلى حفنة منهن -وفيهن* ساتو* - بأن يتبعنها. كلما تراجعت آلام المخاض، تراجعت ساتو للخارج، وكانت النساء المجتمعات عند الباب يقلن، طاعنين الصمت برمح من عيونهن المترقبة بينما يفركن أيديهن المتجمدة معاً: *حسناً؟!*. أعلنت ساتو: *ليس بعد*، ملتفة على كاحليها عائدة للداخل، بعد أن أخذت رشفة من فودكا النقا، ملقياً ببعض رقائق الخشب في الفرن، ودمعت عيناها من الدخان، وكانت تصرخ في الواقفين بالباب: *افتحوا لضوء السماء*. واستجابت النساء: *ليسقط ضوء القمر على الأم*.

تقرب ساتو من المرأة التي تعاني المخاض، وهي تسعل من الدخان وتمسح عينيها الدامعتين. *سيأتي المولود من قدمه أولاً*، وبدأت تشرح للمرأة المنهكة في ألمها وعذابها: *دعينا ننتظر قليلاً، إذا لم يدرُ ويُعدّل من وضعيته، سأمد يدي للداخل وأساعده*. ثم تلف الملاءة على ساقيها، وتعانق جبهتها، وتتهد ناظرة إلى عينيها وتقول: *هذا هو ألمنا نحن النساء، وعلينا أن نتحملة، من يمكننا أن نشكو له؟!*. وكلما جاءت أو ذهب، نقصت الفودكا القوية -التي جلبوها لها لتطهر يديها- لنصف الكمية الأصلية. تذكرت الشال الأخضر الذي أخذته وفكرت مع نفسها أن النساء كن ليقتلنها إن لم تفِ بوعداها.

جلب *هاروت* الشال بداية منذ عدة أشهر بناءً على طلب زوجة الإسكافي، الذي أراد ارتدائه في يوم الهدايا التقليدي، وأن يهبه لابنته في المستقبل، لكن زوجة الإسكافي شعرت بالأسى على المرأة التي تلد، ووافقت على التبرع به أثناء الحديث الذي دار بين سيدات القرية لإقناع ساتو للقيام بالمهمة - وأتم الخياط إعداده في نصف يوم فقط - حتى لا تخلف وعدها بقتل الوليد. فيما بعد في حياتها بعد التسعين، وقد فقدت عائلتها وذاكرتها معاً، سيتذكر وعيها المتأكل الشال الأخضر فقط من هذه التجربة برمتها، ثم ستبحث عنه قائلة: *شالي.. من أخذه؟ لمن أعطيتموه؟* وكانوا يجيبونها: *ابحثي عنه في خزانة ملابسك.. أو في ثنانيا سريرك..*. وكانت تهتف بينما تواصل البحث في الأعلى والأسفل عن شالها: *أوه، أيها الأرمينيون السذج، لقد اختفى.. طار شالي بعيداً، إنه على الطريق إلى إيريفان.. في عربة هاروت.. لقد سرقوه، ماذا سأفعل الآن؟*

عندها، في العبق الدافئ للهمسات في مخبز *زافن* اقترحت النساء أن المولود يجب إطلاق سراحه من رحم المرأة، ووافقتهم. *إلى أي مدى يمكن لوليد أن يكون قوياً؟ كل ما تحتاج إليه لخنقه أن تضغط فقط على أنفه وفمه بقوة*.

لكنها عندما وجدت أنه لم يكن أنيئاً للعالم وحده - ولدت المرأة توأمًا - أدركت أنها لن تتمكن من القيام بالأمر، لو كان وليدًا واحدًا لكان الأمر مقبولاً. كانت لتقول للأم إنه وليدٌ ميتًا؛ فالعديد من

الحيوات أخذت على يديها.. فهي قررت من عاش ومن مات منهم. قدمت المساعدة لتلك الفتاة يتيمة الأم حديثاً -الابنة غير الناضجة للحداد- عدة مرات. أبقت عليها في بيتها لأسبوع، وملأت الجرادل بفضلات الحيوانات الطازجة، مشيرة إليها أن تحملها وتقرغها على كومة الروث حتى تُجهض. *لماذا تحتفظين بطفل سيظل يذكرك بالإهانة التي تعرضت لها؟* محاولة إقناع الفتاة، لكن ربما لم تكن الجرادل ثقيلة كفاية. لم يحدث أي ما أعطتها لتأكله أو تشربه فارقاً.. ثم وضعت حجر الرخى على بطنها ليومين؛ تشقق ظهرها وأجهدت عضلات ظهرها لكن لم ينفصل الجنين عن رحمها، ثم تدفق سائل مُغيم ومُدمم وحدث الإجهاض. كان الجنين عمره سبعة أشهر، مثل هذا.. كان صبيّاً بصحة جيدة.. سقط على البساط وبدأ يصرخ، لكنها لم تقترب منه لقطع الحبل السري، ظل يصرخ لساعتين، ورنّ صدى صوته في العالم، لكنه لم يمت. اندفعت خارجة من الحجرة لتأخذ استراحة في الإسطل، تاركة الأم ووليدها المهض ليوواجه كلاهما الآخر.. فقط لو كان الجو أفضل، لكان هاروت ساعدها على إيجاد عائلة بلا أطفال لترعاه في مكان ما في إيريفان، أو بايازيت، أو آران- لكنه كان شتاءً مثل هذا الشتاء، ربما أكثر برودة، وكان الوليد بصحة جيدة، وحبله السري غير مقطوع، وصرخ كثيراً جداً.. اختنق في صراخه. كان تنفيذ المهمة سهلاً في تلك الواقعة، لم يكن لديها أي مخاوف أو شكوك. فقد علم الجميع أنها فتاة غير ناضجة وكان أبوها شيخاً كبيراً ووحيداً.. ولم يكن هناك سبيل آخر، حتى إن الحداد وعدّها بشوال آخر من الدقيق. لكن الأمر كان مختلفاً مع تلك المرأة، فقد رزقت بتوأم، وكان صراخهما وأنيبهما قويّاً بينما لم يولدا بعد، حتى إن أولئك الواقفين على الجانب الآخر من الباب عرفوا أنهما كانا بكامل صحتهما. الجميع عدا هاروت، عندما عرفوا كانوا سيضربون رأسيهما ببعض كالهراوة هنا وهناك، ثم يطيحون بهما بعيداً.. أو العقاب الأقصى كان أن يُلقى بهما معاً على ظهر الحصان، الذي احتفظ به هاروت بعد تزويجه لحالات خاصة.

رأته ذات مرة، باكراً في الصباح، حتى إنها لم تعرف ما الجرم الذي ارتكبه ذلك العبد البائس.. لكنها رأت هاروت ينخس الحصان بقوة في خصيتيه، فانطلق بوحشية، جاراً الرجل خلفه، ممزقاً إياه إرباً فوق الصخور.. من أفضل من الصخور يصلح لتنفيذ الحكم عليه؟ وعندما سأله أحدهم *ماذا حدث لذلك الرجل الذي كان يحمل صخرة الملح الأسبوع الماضي؟* أجاب هاروت بشيء من الإخلاص: *لم يكن مُهيأ للبقاء.. وغادر* ومن ذا الذي كان ليجرؤ على سؤال هاروت سؤالاً آخر أو يطلب تفسيراً للأمر؟

تسببت هذه الأفكار حول هاروت في أن يتصبب عرقها، ما بين ساخن وبارد. شعرت أن عنقها ابتل، وضربتتها الرياح الآتية بصوت مثل صرخات الرعب، تماماً مثل تلك الليلة التي تُرك فيها هاروت في العراء، واستنشق الهواء البارد في رثيته. ليلتها انتهى به الأمر وقد غطى الصديد حلقه، وتقصد العرق من جبينه في موجات.. مسحت له يومها حلقه بمشروب روحي أبيض، وسكبت له منه ليشرب، وتبادلا الحديث في انتظار زوال الحمى عنه. تحدث معها هاروت عن الوافدين الجدد، وسألها: *أعطيتك الوقت لتجعلهم يقفون على أقدامهم، فلماذا لم تفعل؟* بررت موقفها بالقول: *كانوا في حالة من الرعب الشديد، تخيفهم الشمس وكذلك الظلام. يخافون من الحرارة كما يخيفهم البرد. كانوا يخافون من الناس، ومن الرياح.. كل شيء كان يخيفهم. لم يكونوا يأكلون أو يشربون، ولا يتواصلون مع أي أحد.. لا أعرف شيئاً يبدو أنه يؤثر فيهم.. إنه لأمر عجيب كم كانوا خائفين؛ حتى إن خائفين ليست الكلمة المناسبة.. كانوا مشوشين لأبعد حد.*

تتهد هاروت قائلاً: *إذا لم ينجح شيء تعرفينه معهم، حاولي بشيء ما يعرفه شخص آخر* وكان رأسه يشتعل بالحُمى.

أتخذ القرار.. كان الخوف هناك؛ الخوف من الظلام، ومن البرد، ومن الحيوانات المفترسة، لكن الخوف من الله لم يجعلهم يركعون؛ لأنهم كانوا طبيين يقومون بأفعال طيبة. وعندما انحسر القمر، وصار العالم مظلمًا، وتحول إلى كرة سوداء مستوية مثل عين الغراب. تسلقت ساتو ظهر حصان بري، وأسرعت به عبر سلام الليل، وكان سلام تلك الليلة مخيفًا، عبارة عن تأوهات وصرير مخالب صقور، وتتهدات رياح تغرق في الوديان، وطقطقة صخور تتسكب من قمم الجبال.. كان سلام تلك الليلة حربًا بين أصوات الطبيعة والسكون الكوني، يتصاعد الأول ليخنق التالي له، ثم يستجمع التالي قوته ليسحق الأول.. أسرعت ساتو متشبثة بعنق الحصان، غير قادرة على تحديد الاتجاه الذي يجب عليها الذهاب فيه. لم تكن خائفة قط لهذا الحد، ولو كان الأمر بيدها لرفضت الخروج، لكن العروق النافرة للحصان المتعرق من الحرارة، جعلتها تخاف من أنها إذا لم تتم المهمة، فإن الحصان بخاصرته المرتعشة سيجرها من حبل مصنوع من شعر ذيله، وسيشطر عظامها فوق الصخور، ولن يُعني أحد التحقق في الغسق، إذا ما كانت الدماء التي تلتخ الحجاره دماءها أم عرق الشمس.

كانت أول شخص وقف إلى جانب هاروت عندما ترك القرية، وكانت المرة الأولى في حياتها. يومها عادت للمكان الذي التقطها هاروت منه في التلال ولقها في بساط، قبل أن يحملها على حصانه ويذهب بها بعيدًا.

تحركت بحرص في الظلام باتجاه المقبرة.. ومشت على أربع مثل كلب، وحفرت حول أول شاهد قبر وجدته، واستخرجت العظام التي أمكنها انتزاعها، وغسلتها في الليل، ثم جففتها، وساوتها بالطول وشوت مسحوق العظام في وعاء مسطح يستخدم في المطبخ، بعد خلطه مع الدقيق، وصنعت منه عجينة، ثم صنعت منه خبزًا وزعته على المهاجرين، وأكلوه، وهضموا مع العظام الممزجة بالدقيق مخاوفهم أيضًا.

نظرت ساتو إلى الجبال برعب؛ حيث تدرج الضباب حول قممها فخنق السحب، وارتعدت. وفتت النساء في انتظار المولود، وتخفى ابن *فاردانوش* في تنورة أمه، في انتظار أن يصرخ الوليد، حتى يستطيع إبلاغ الأبناء لـ هاروت. وعده هاروت بجرو له أذنان لم يُقطع بعد، يمكنه أن يدربه ليكون متوحشًا. تشبث الطفل بتنورة أمه، وتخيل كيف سيدرب الجرو لينبح ويحك في قطع من الدهن أمامه. داس بقدميه ما أن سمع النساء يشنكين، وتشارك ساتو في سلوكها المدعور بشكل عفوي من البرد غير المحتمل لليل، ومن معاناة ناخشون في الولادة. *وريت لم يولد بعد، لكنه قضى بالفعل على المرأة المسكينة*. دُهِش الصبي من كلمات أمه.

لم يخرج الطفل بعد للعالم، لكن الجميع تكلموا عنه لزمان طويل، منذ ظهور المهاجرين لأول مرة. تمامًا مثلما في الموت، عندما يكون الشخص ميتًا لزمان طويل، ويستمر الناس في مناقشة وجوده الغائب على مر أعمار.

جلبت الرياح الجنوبية رقائق من الهواء البارد، وتضاعف قلق النساء. *ألم ينته الأمر بعد؟ هذا الانتظار يقتلنا! ربما ستموت في أثناء الولادة*. شعر الصبي بالأسى على ناخشون، رآها ميتة ذات مرة، وكانت تجربة حزينة للغاية ومرعبة.. تذكر أول يوم رأى فيه ناخشون. كان حفل خطبة أخته، وكان يلعب دور الرسول مرة أخرى.

*عندما يصل الضيوف، لعلمه أنهم مثل آلتنا الشعبية *زورنا*، أيًا كان ما يرونه داخل البيت، فسوف يعلنونه مثل النفير إلى العالم الخارجي*. وعدته أمه ببعض الحلوى من علبة هدايا العروس، وأرسلته إلى قمة التل كي يبلغهم بمجرد أن يجلبوا الأسماك، لكن عربة الأسماك تأخرت..

انبتق ثعبان من تحت الأرض، من ركن شاهد قبر، كان ثعبانًا من العالم الآخر، وكان عليه الخروج بطيئًا والزحف، مُطلقًا صوتًا كالهسيس، مغطيًا أجزاء منه بعضها على بعض وعلى الأرض. انتظر الصبي أن يخرج الثعبان قطعة قطعة، ثم قفز على صخرة وراقب المشهد برعب، بينما عصر الثعبان ضلوعه إلى داخل الشق بين الصخرة الملساء والأشواك، وهو يفرك فيها فتؤلمه بينما ينزلق إلى جواره. انتظر حتى تمدد الثعبان وزحف باتجاه طاولة القرايين، التي تحيط بها الزهور والأعشاب. كانت طاولة القرايين عبارة عن صخرة ثقيلة مسطحة امتصت أشعة الشمس والعديد من الدماء، وغير قادرة على تحمل وزنها ذاتها؛ لذا انزلت من قاعدة التمثال الأرضي، وجرت نفسها لأسفل.. بينما حُفر صليب سميكة على جانبها، وهناك كان عنق الضحية أو القريان يفصل، ويرقد الدم الأسود جافًا داخل الصليب.. كانت السكاكين حادة النصل، وانتشرت الدماء على العشب، على هيئة بقع سوداء وحمراء على النصل، وامتصت جذور الأعشاب الشراب الدموي كحيوان مفترس.

حك الثعبان بطنه الزلقة في الصخرة الملساء وخنق الصليب الموجود تحتها، مضيّفًا وزنه للدم بينما ينزلق إلى داخل العشب. رأى الصبي صورة السحب ذات النمش في الأشواك وبين الحجارة تحت قدميه، تحك بالكاد في أصبع قدمه الكبير. انحنى للأسفل والتقط الجلد المنزوع من الثعبان، وخبأه في قميصه. سيأخذه ويعطيه لأخته، ويمكنها أن تجدله في شعرها حتى ينمو طويلًا. شعر بالذيل الدافئ لجلد السحلية في جيبه، الذي يقولون أنه ثروة جذابة، وجلس على الصخرة ذات النتوءات، سعيدًا بغنائمه.

لقد ظهروا، كان كلاهما صغيرًا، صحيح البدن، بسيقان قوية معتادة على الجلد..، *الوكان* كان لديها *داجدان*¹ وكانت تضعه على رأسها، جالسة مرتاحة مستندة إلى جبينها، بينما جلس الثور *بالو*^{*} مرتاحًا مستندًا إلى جبينه، وفوق قرنه الأيمن حزمة من شعر ملون تشكل من خيوط سجادة، تتأرجح في إيقاع ينسجم مع حركة رأسه.

صفر سائق العربة، قطع صفيّره في الهواء مثل سوط، فهم الثور الأمر وتحرك للأمام، يركل الغبار في طريقه. لم تتصاعد سحابة الغبار على الفور من تحت أقدامه، كما لو كانت لتفعل مع حصان مسرع. كانت السحابة بطيئة غير متعجلة، مثل رجال حكماء يزنون كلماتهم قبل أن يتكلموا.

تدحرجت الحجارة والحصى أسفل المنحدر، متصادمة بعضها مع بعض في سحابة الغبار. ابتسم الصبي وهو واقف على قمة التل- عندما رأى العربة الممتلئة عن آخرها، والجهد الذي يبذله الثور لتحريكها، وسائق العربة الواقف فوقها مع الصافرة المتدلية من عنقه. وعندما ارتطمت العجلات الخشبية بوحشية بالسطح المتشقق للصخرة الملساء وجاوزتها، رفع جرسًا فوق رأسه، وانحرف بحدة تجاه القرية، اهتز الجرس بينما أسرع ناحية البيوت صارخًا بخجل: *عربة تسوّق السمك آتية.. سمك طازج! سمك!*

توقف الثور في ساحة القرية، وهو يزفر البخار والمخاط من منخاره. ابتسم الصبي ومسح على

رأس الحيوان المتعرق المترب، ثم تحرك للأمام ليفك إيسار العربة. سحب الغطاء للخلف وصرخ.. وتحجر أهل القرية مما رأوه، بعضهم صرخ رغباً عنه، وبعضهم غطى عيون الأطفال الذين صحبوهم، ودمدم بعضهم بكلمات لا معنى لها.

وهتف هاروت: *ساتو، ساتو...* سُمع صوت ساتو لا مبالٍ من خلف ظهر أحدهم، *ماذا؟* قال مشيراً للعربة: *اجعليهم يتكلمون غداً*. تمتت المرأة العجوز: *أنا قابلة يا بني، أساعد في ولادة الأطفال، وأجهض الأجنة...*. فقال لها: *وتعالجين البثور كذلك*. تمتت مرة أخرى متسلحة بالصبر لتشرح له: *بني.. هناك شيء واحد يصلح لقراءة صلاة ودفن حبة شعير في ليلة القمر الجديد، لكن القيامة شيء آخر مختلف كلية.. في مثل تلك الحالات القمر الجديد بلا حول ولا قوة، والباقي مشكلتك أنت..*.

دعيت كل عائلة لتتولى واحدة، وأولئك الذين أكلوا الزبد والعسل يمكنهم أخذ اثنين منهم. اشتكى أحدهم بصوت خافت دون أن يملك شجاعة التقدم للأمام في الحشد: *ما الذي سنفعله بتلك الجثث؟* رد هاروت بحسم: *أنا لا أبالي، عليكم أن تتكلموا معي في الصباح*. هممت زوجة *فازجين*: *نحن لم نسرق الطعام، نحن وجدناه وأكلناه*.

حدق هاروت في وجهها، أحنّت رأسها، واقتربت في صمت من العربة وفحصتها: *سأخذ المرأة الحامل، ذلك يعني شخصين كما قلت، صحيح؟*
*المرأة الحامل لديها *سيمون* سيأخذها*.

أنا.. أنا.. تتم سيمون في خوف، *لا يمكنني رعاية الطفل*. دفعه *أروسيك* *لا تقلق، يمكن للجثث أن تلد*. هاجمه سيمون *ماذا عنك؟ لماذا تركت هذا يحدث لهم؟ أيّاً كان المذنب في الأمر عليه تحمل العبء*. أيدته ساتو *هو على حق، من هؤلاء الناس أصلاً؟*
من يدري؟

أين كانوا؟ أين وجدتهم؟

لقد أتوا.

أتوا، تعني على أقدامهم؟

نعم أتوا على أقدامهم.

أوه عزيزي.. وأمسكت ساتو برأسها رعباً، لقد تم كشفنا.

كان لـ ساتو النظرة نفسها على وجهها الآن مثل ذلك اليوم، لكنها لم تكن ممسكة برأسها، تحملت رعبها وحدها ولم تشارك أحداً فيه. تمتت بشيء ما – ربما صلاة – وواصلت السير للداخل وللخارج، مبعثرة الغبار على عتبة الباب من قبضتها، ثم حكّت أنفها عندما فوجئت بأن هذا لم يقلل آلام الولادة. ظلت النساء في الخارج يرفعن سيفانهن ويخفضنها لإبقائها دافئة، وواسين أنفسهن بالقول أن الناس المهمة فقط هم من يأتون وسط تلك المعاناة.. وتنامت رهبتهم من المجهول مع تلك الأفكار.

تناولت ساتو رشفة أخرى من فودكا التفاح. وعندما وُلد التوأم، تقريباً عند الفجر، وقاموا بتسخين السكين وغسلها بالفودكا، قامت بقطع حبلهما السري بيدين مرتعشتين، وتمكنت بالكاد من الهرب عبر الباب الخلفي.. رأساً عبر الشارع إلى حيث كان *سيدراك* يُحتضر، وكان مفترضاً أنها ستقوم بتغسيل جثته وتعدّها للدفن. جرت النساء خلفها وسألن: *حسناً؟ توفقي، هل قمت بالمهمة؟ سيدراك يُحتضر...* وتهربت من الإجابة.

وضعت *فاردانوش* أصابع الصبي الزرقاء في فمها وأدفاؤها بأنفاسها. أمرت النساء: *أسرعن للبيت وإلا انتهى بكنّ الأمر مرضى بالدرن. سيعطيكم هاروت جرواً على أي حال، ماذا سيفعل مع خمسة جراء إناث؟* وراقبت القابلة من الخلف وخمنت *إنه صبي أكيد.. هذا يترك العالم، وهذا يأتي*. وتركت سيدراك الذي كان منهكاً بالقدر نفسه.. كانت الديكة تصيح في أذنيه لأكثر من شهر. كان يطلب كل يوم الماء من النبع الساكن، كل من طلب ذلك الماء عادة ما مات بعدها بقليل، إنها رغبة أخيرة شائعة بين أهل القرى، آخر شيء يرغبون فيه في العالم. لكن النبع كان عنيداً.. فقد أصدر صوتاً عالياً أتياً من تحت الأرض أو مكان ما، حتى إن الناس لم يسمع بعضهم بعضاً، لكن لم يخرج أي ماء. لا أحد يعلم لماذا سُمّي النبع بذلك الاسم؛ هل حفروه في الماضي وفقدوه بعدها؟ هل اكتشف بالصدفة؟ كيف صار قاحلاً لهذا الحد ليحل محل ملاك الموت؟ كان المرضى والعجائز يقضون أياماً وشهوراً حتى يقرر النبع أن أوانهم قد آن. يتجشأ، ثم تتفجر منه بضع نقاط من الماء، وينطلق الناس الذين يقضون الليل بجواره ليجمعوا الماء، ويجلبوه لأولئك الذين يعانون سكرات الموت، فيشربونه وتقيض أرواحهم.. الذي حدث أن النبع كثيراً ما تلعثم وأفأق مع تقجر الماء. كان يتقجر عند نقاط بعينها، مبدداً الشكوك حول جفافه ثم يخنقي. عليهم أن يكونوا أذكياء، وأن يتصيدوا لحظة التقجر كما يتصيد المرء لحظة حظ. ويجب أن يضعوا أكفهم تحت الماء المتقجر ثم يسرعون به للمريض، حتى لو كانت مجرد رشفة. لكن كل شيء يتعلق بـ سيدراك أخذ وقتاً أطول من الضروري. ذهب أطفال القرية وعادوا من هناك لخمسة أيام، دون أن يجلبوا أي ماء، ثم ذهب هاروت وعاد بنصف قارورة، شرب منها سيدراك وقال: *آه، ذلك يترك فقط وجبة الديوك...* لم يقصد سوى الديوك.. *عليك البحث عن الباتروس*². كان أهل القرية يتهكمون مشيرين إلى المخلوقات المجنحة التي تتأرجح فوق الأمواج. *أي نوع من الطيور ذلك الديك إذا لم يستطع الطيران حتى؟ إنه مجرد حيوان آخر...*

يتفاجأ سيدراك ويقول: *أي كلام غريب هذا، إذا أحس طائر الباتروس بدفء الشمس كما يفعل الديك، فأني حاجة له ليرغب في الطيران؟* كلما هبط أحدهم بالقرية، سواء كانت مناسبة سعيدة أم حزينة، فإنه يأخذ معه بعض الديوك ويلقهم من أيديهم وأرجلهم مربوطة ورؤوسهم للأسفل عندما يذهب لزيارة ما. وكان ينظر للأسفل في أثناء سيره، خاصة عند عبوره بأحدهم، بنظرة انتصار على الديوك المقيدة التي تنهكها المقاومة، وترفع أعناقها قليلاً حتى لا تصطم مناقيرها بالأرض. عند وصوله لمكان الزيارة، يبقى حتى يتم ذبح الديوك وتُعد المائدة.. يأكل ومرفقه مستند على المائدة، ويمضغ ببطء، ويمصص بقوة، ثم يمسح شفثيه ويزيح العظام. آخر مرة تناول وجبة كهذه كانت عندما ذبحوا الديك المنقط بلغد ناصع. كانت تلك آخر رغبة لـ *آمو*. في ذلك اليوم جلس سيدراك تحت شجرة، ووضع الطبق بين ركبتيه وصبّ بعضاً من فودكا مصنعة منزلياً. *يمكنك الذهاب في ضوء النهار يا آمو* قالها بنية حسنة رغماً عنه، وأكل ما رغب فيه آمو. كان أمراً طيباً أن استطاع آمو أكل الدجاج، لكنه لم يكن جاهزاً في الموعد، كان عليه أن يجد ابنته بالتبني لتحمله. كان سيقول لها: *من واجبك الاعتناء بابيك بالتبني*. خلع ملابسه ودخل حوض الاستحمام، وعندما انحنى ابنته لتصب الماء عليه، ترك يديه تعبثان بها بحرية. ذات يوم، بينما كانوا يقودون قطيع الأغنام خارج الحظيرة، أمسك به رجال الحي وهو يفعلها معها وضربوه.

وقال: *ابني الصغير عاقر، وستنتهي زوجته إلى هجره. أنا أفعل هذا من أجل سلامة عائلتي...*. هكذا فسر آمو زير النساء الأمر. كان رجلاً لا رب له، لكن عندما كان يحتضر كانت زوجته

وأبناؤه إلى جواره، كان هناك من يستمع لأناته الأخيرة. أخذ نفساً عميقاً، وسأل بينما يقطع الهواء في رئتيه: *ساتو، أنت لم تَرَي زوجتي الأولى قط، هل فعلت؟ وكيف يمكنك رؤيتها وأنت لم تكوني قد وصلت هنا بعد، لكنك من قمت بتحميم زوجتي الثانية..* .
أجابت: *لها جسد جميل* .

أوه، أمر عجيب، كلتاها طاردتني، ووقفن أمامي منتظرات استجابتي .

أيهما ترغب في الذهاب معها؟

لا أدري؟ سأخبرك بمجرد أن أذهب .

كيف ستخبرني وستكون قد رحلت؟

*إذا كان عندي ما أقوله، سأجد سبيلاً لقوله: *لا تقلقي* . بعدها بفترة قصيرة تأوه قائلاً: *ساتو هل تسمعين صياح ديك؟* . أجابت: *لا* وهي تفحص حرارة الماء الموضوع على الموقد، ولتأكد من أنه كافٍ لتغسيل جثته.

تمكنت ساتو من شم رائحة الموت القادم مثلما أمكن لكلاب الصيد شم رائحة فريستهم. *وبدا أنفه أكثر حدة* نظرت له وكانت عيناه مغلقتين. *لم يعد هناك الكثير من الوقت* . وقررت البقاء معه، ستنتظر لأنها لم ترغب في ترك سيدراك المسكين وحيداً عندما تحين لحظته. فكرت في أن أهل القرية سيقدمون مساهمات لتغطية تكاليف الجنازة. أخرجت المنديل الذي تستخدمه كحافطة من نحرها، فكته، وأعدت مذكرات فردية قليلة في صف على الطاولة، رافعة إصبعها لفمها في كل مرة لتبلله باللعباب، وفصلت المذكرات واحداً واحداً. ندمت على قيامها بذلك، وأزاحت نصفها، ثم نظرت مرة أخرى، والتقطت واحدة. نظرت نظرة خاطفة إليه، وكان الآن يتنفس بالكاد وعيناه لا تزال مغلقتين. التقطت آخر مذكرة وأعادتها للمنديل، وربطته ودسته في نحرها. *في نهاية المطاف كل ما أفعله يساوي ما لا.. دع أولئك المسترخين في بيوتهم الآن يرسلون بعض المال، سيأتون غداً إلى جثة تم إعدادها دون أدنى مجهود منهم..* . قامت وأضافت نصف جردل من الماء إلى الإناء الموضوع على الفرن.

أيقظت الجلبة سيدراك، فتح عينيه وقال: *ساتو، هل يعلم القوم أنني أحتضر؟* . *نعم ذكرت لهم الأمر...* . تشكى سيدراك: *حسناً إذن، متى سيعيدون لي الديوك التي أعطيتها لهم؟* كانت عيناه باتجاه الباب. *هل سيأتي أحدهم لزيارتي، ومعه زوج من الديوك معلقاً على ذراعه؟* وتجمدت عيناه على مدخل الباب الخالي.

أغلقت ساتو عينيه، وفردت ذراعيه وساقيه، وسحبت الغطاء فوق وجهه واندفعت للخارج. تمتمت: *لقد مات*، وقالت للمجموعات عند الباب: *الكائن المسكين، أدخلن إليه حتى أعود حتى لا يبقى وحيداً* . أسرعت للمرأة التي تلد متسائلة من ستستدعيه للبقاء إلى جوار الجثمان في الليل.. لا يمكن تركه وحيداً، وهي متعبة للغاية.. هناك العديد من القطط في القرية، ربما جاءوا وشوهوا الجثمان.. ثم غابت الشمس - دون كفن - مثل الآلهة... فكر هاروت بينما سار داخلاً وخارجاً *الشمس محظوظة أن لها مكاناً يمكنها أن تهرب إليه* . آخر مرة كان قلقاً هكذا كانت في طفولته عندما كان في الخامسة أو السابعة من عمره، حين قضم جزرة ليجد سنه التصقت بها. سحبوا السن الأخرى المنبجعة بأن غلفوها بخيط وربطوا الطرف الآخر في باب. ركله *بيرش* ليغلقه. أغلق الباب وأخذ معه الخيط والسن، تماماً مثل طفولة هاروت المعلقة بطرف خيط! كان الوقت متأخراً في الخريف، تقريباً نفس توقيت الآن، ولم يسقط ثلج بعد. جلس هناك يهز قبضته المضمومة، يخشخش

سِنَّهُ المخلوعة في كفه، منتظرًا سطوع القمر. أتى القمر سريعًا، بلا جذور مثل نبات صحراوي يعدو أمام الريح. جلس على كتفي بيرش ونظر للسماء، مخشخشا السنّ في قبضته ثانية وهتف للنجوم بكل عزمه: *خذي أسنان الذئب هذه، وامنحيني أسنان حَمَل بدلاً منها*. بالعزم نفسه رمى الأسنان عبر الليل الخريفي باتجاه السماء. هل التقطها القمر؟ ماذا ستفعل السماء بتلك الأسنان اللبنية؟ تذكر ذلك الآن بابتسامة. لماذا أسنان حَمَل؟ الحَمَل بريء نعم، لكنه ينمو ليصبح خروفاً. مؤكداً أنه لن يطلب أسنان حَمَل في هذه السن..

نظر القمر للأسفل مع النظرة الباردة لحشرة محتجزة في مادة صمغية. انتشر الأئين أتياً من مصدر مجهول. وتمددت أصوات العواء في القمر، جالبة معها كل أنواع الأفكار إلى عقل هاروت المورق، محطمة روحه، وكاشفة جروحه المتقشرة. تصاعد الألم بداخله، طال جذوره العميقة، وبلغ حلقه فاخنتق. *أتعجب ما الذي يجعله يغني هكذا، وهو يئن بكل هذه المرارة.. ألا يمكنه إيجاد ضحية؟ هل منخاره يؤلمانه بسبب افتقاده لرائحة الدم؟*. تنهد قائلاً: *آه، أخي الذئب.. لو كان ألمي ألمك، لما استطعت حتى أن تصدر صوتاً. في الأيام الأخرى، كانت الكلاب تتبجح من آلاف البقع، كل واحد منها يشجع الآخر بزمجرته، ويتضاعف النباح فيغرق فيه عواء الذئب الوحيد. لكن اليوم، كان كما لو أن كل الكلاب ميتة، كما لو أن الذئب دخل قرية بلا حماية، وهو يمزق الناس إرباً يميناً وشمالاً بينما يعوي في وجه القمر*. شعر بالرهبة. *يا له من صوت جميل يصدر عنه، ذلك العواء الطويل شديد الإخلاص.. مثل صلاة*. شعر برعب من أفكاره وتضرع *أوه، يا إلهي، ساعدني حتى لا تتحول صلاتي أبداً إلى عواء*.

إحدى نقائص الحياة أن الدم لا يمكن محوه، وتأتيه ذكرى ذلك الدم الآن؛ جلدٌ، جلدٌ، جلدٌ.. بإيقاع نثار الخشب، مراقباً الوقفات المنتظمة، كان يطرق بعناد وملل. كل نفس أخذه شعر به مثل ظفر ينغرس في قلبه. من المحتمل أن أحد والديه قتل غالباً بسكين في صدره، وتحول ذلك الألم إلى ذكرى ذات مزاج دموي. هو لم يُرَض والديه حتى في أحلامه؛ لأنه لم يحتفظ بصورة ذهنية لأي منهما في ذاكرته يمكنه إحيائها في نومه. بالطبع يمكنه ملأ الفراغ في ذاكرته باستخدام أيقونات وخيالات، لكنها ستكون زائفة، ولم يكن في نيته خداع نفسه.

لم يتمكن قط من سؤال بيرش كيف أتوا إلى هنا، هل على ظهر حصان أم سيراً على الأقدام، حتى إنه لم يسأله ما قرابته به؟ قال له إنه عمه لأبيه، وهذا هو. وإلا لم يكن ليسمع الدمدمة الآتية من صومعة القمح عبر النحيب والبكاء يوم المذبحة. ولم يستطع سحب الشال من فوق أمه الراقدة على وجهها، ولم يجمع التربة داخل السرير الذي وضعته أمه هناك ليمتص بول الرضيع، ويحفظ السرير جافاً. ولم يستطع أن يلف هاروت في الثياب ويمرّق به، مصطدماً بالصدفة قدم الرضيع في رأس أبيه، التي تدحرجت في الحقل بعد جزها، ولما انتهى به الأمر بالقرب من وعاء أكل الدجاج. عرف بيرش كل شيء، كان لديه المزيد من الوجوه في ذاكرته مما يوجد حتى في الإنجيل. كل وجه منها تم ترتيبه بعناية داخل إطار وتعليقه في جدار ذاكرته. كان سيئاً جداً أنه تقدم في العمر سريعاً، وتبخرت أو تلاشت هجرة الخريف من ذاكرته مبكراً. في ليلة واحدة، طارت كل الوجوه والأحداث سرباً وراء سرب من ذاكرته، مثلما تتلاشى التجاعيد من وجه الموتى، محيت الذاكرة من عقله وصار خالياً، وفقدت دماؤه ذاكرتها، وصار مثل عود قصب أجوف. غسل بيرش عقله – كما لو كان عمداً – موجهاً هذا الينبوع من البؤس للداخل، بالطريقة نفسها التي انهمرت بها مياه غضب الإلهة في الفيضان على العالم، لكنه لم يخلف في عقله شيئاً منها. لا ذاكرة، ولا نوح، ولا

سفينة. أولاً ذاكرته، ثم رؤيته، ثم قدرته على الكلام... قام بشرنقة نفسه في النسيان، مثل ذكر الفراشة محتويًا عضو الحب داخل الأنثى، وبذلك لا يمكن لشيء أن يدخل أو يخرج ثانية.. صار حرًا من كل شيء يضايقه، وأمكنه العيش بسلام. على أي حال، كان أحيانًا يقفز عاليًا إلى حالة من الرعب دون سبب واضح، ناظرًا يسارًا ويمينًا دون وعي منه. اعتنى به أهل القرية - رعوه كما يرعون قبرًا لقريب لهم أو إرثًا للعائلة - ربما حتى كنسخة من الإنجيل بغلاف من الفضة يجب تنظيفه بدقة، وتقبل بتهيدة، ثم تُلَف في حرير أحمر، بعيدًا عن أعين الغرباء. محتمل أن هذا كان سبب أنه عمّر طويلًا.. طويلًا حتى إنه لم يعد يمجّد لا الحياة ولا الموت، مكتشفًا أن كليهما عاجز، واحتقر كليهما.

نعم، هم عاشوا حياة ممتدة، كما لو أنهم نسوا أن يموتوا، كما لو أنه لم يكن هناك هدف، كما لو كان الرعب أبقى عليهم أحياء.. ستنبذهم الحياة لكن الرعب لن يفعل. سيربض الرعب بالقرب منهم مثل كلب مخلص، لاعقا أيديهم، متمسحًا بأقدامهم، وحتى لو أنتت النهاية، إذا أغلق الباب فإن الرعب لن يغادر. سيتسكع مرًا من شفاه إلى شفاه، مثل أسرار السحر العتيق، معتمدًا على الشفاه الكتومة، لا لتكتب ولا لتوثق، ولا لأن تقع في يدي صاحب نوايا شريرة.

بدأ قلبه ينبض بالتوتر عندما فكر في بيرش بسرعة وبنوع من الغضب الذي يأتي فقط من الشعور بالظلم، نبض قلبه متسارعًا مرة أخرى. ألمته ساقه عندما جلس لوقت طويل، وتؤلّمه أيضًا عندما يسير لمدة طويلة، كما تؤلمه من البرد، لكن قلبه ألمه أكثر.. لو كانت أمه أسقطته بعناية أكبر في الدقيق، لو كانت أمسكت به من جزء آخر في جسده.. بالرغم من أن ذلك سيترك عضوًا آخر مؤلمًا على أي حال؛ لأن ذلك كان مصيره. لو كانت جدته موجودة في الجوار فقط. لو كانت موجودة لخنقت دجاجة دون أن تنتف أيًا من ريشها. ثم كانت لتضع المخلوق الصغير وجسمه ما زال ساخناً، على ركبته التي تؤلمها مع الطائر - مقتولًا لكن ليس ميتًا تمامًا بعد - وكان يمتص الألم إلى داخل جسمه هو. علق *سيساك* رأسه في مدخل الباب وقال: *هل أنت نائم؟*، ثم جرّ جسده بأكمله متأوِّهاً واضعًا يده على ضلوعه، *هل أخفئك؟ إنه أنا سيساك*. أجاب هاروت كل الأسئلة في الحال: *تعال، لم أكن نائمًا، أنت لم تخفني...*

ساتو تجد من الصعب عليها التصرف، تقول إن الطفل قد يموت، رغم أنه إذا ما حدث ذلك فسيكون للأفضل كما أتوقع. دُهِش هاروت. *كيف يكون الموت أفضل؟*
أي شيء ممكن، أعني هل يمكنك القول إنهم يعيشون الآن حياة حقيقة؟ خذ هذه القائمة.. ضغط بإحدى يديه على ضلوعه مرة أخرى، وتأوه بالقرب من هاروت *هذا الشيء اللعين يقتلني.. كبدتي.. أنت أختي لرؤيتي، وجلبت معها حلاوة، لكن لا يمكنني تناول أي منها. ذلك الدب هبط من الجبال ووصل للمقابر، وأسقط بعض حجارة المقبرة. شاهد ابن الصياد الميت أيضًا.. بكته زوجته كثيرًا حتى أصيبت بالعمى. لكن المتهم بقتله ليس شخصًا، فلا يمكنك حتى أن تأمل في الانتقام. فما الذي يعرفه ذلك الحيوان عن العالم؟ لكني أملك خندقًا تم حفره حول المقبرة بحيث نستطيع وضع سور حولها. كل ذلك الرفات يمكن أن يفي بالأمر.. إذن، ماذا كنت أقول؟ أه، نعم، خذ هذه القائمة. الكلمة المكتوبة تعيش طويلًا، احتفظ بها في مكان آمن؛ لأن شخصًا ما ربما احتاج إليها بعد أن نفنى، لا يمكنك أبدًا أن تعرف من يكون*. التقط هاروت القائمة ونظر فيها.

انظر لتلك الأسماء للعائلات (ليشيشوجليان وجاراجيوزيان..). هي مثل استطاعتهم البقاء مخلصين لأنفسهم وللاثر.. تلك هي الطريقة الوحيدة التي أمكنهم النجاة من خلالها.

حسنًا ربما لم يكن عليهم أن ينجوا.. ما الشيء المميز في الذهاب للنوم، والسير، أو شرب كوب من الماء، تبرر مثل هذه التضحية بالهوية؟

من السهل الحكم عليهم.. دائمًا ما يكون أسهل على المرء الحكم على الآخرين. سار سيساك باتجاه الباب، وهو لا يزال يتأوه ضاغطًا بيديه على جانبي جسمه بوضوح، *تصبح على خير*. عاد بعدها بساعات *نحتاج للبيض، هناك خمس بيضات مفقودة.. لقد وضعت مولودًا، وعلينا أن ندفع لـ ساتو حتى تغادر. لم يتركوني أحظى بأي لحظة نوم الليلة، وظللت واقفًا على قدمي لوقت طويل.. قلت لك ناخشون وضعت مولودًا.. كانت ولادة صعبة، كادت أن تموت في أثنائها.. لو كانت وضعت مولودًا صبيًا بعد.

كل ذلك*.

هل هي فتاة؟

تتهد سيساك بقوة: *ألم ترغب في أن تكون فتاة واحدة، لقد وضعت توأمًا.. خبط بسبابته وإصبعه الأوسط، مخفيًا بقية أصابع يده، *فتاتان توأم، الشيء الوحيد الطيب أن كلتيهما صغيرة الحجم، ربما لن تتجوا*.

طالبًا حجر التشذيب. نادى ونادى.. لكن الصبي لم يكن متاحًا ليراه أحد. خاف.. هل فقد الصبي في الوادي؟ ثم هدأ نفسه، الصبي مع فارسو مستمعًا لإحدى حكاياتها. رغم ذلك، ذهب للبحث عنه ليطمئن عليه فقط.

كانت الأيدي الصغيرة تلتقط الحصى من النهر من خلال فتحات في السور، كل منهم كانت لديه حصة مناسبة للعبة، مسطحة ومدورة، أو لآ حصة صغيرة، فالأصغر.. وضع الصبية حصى النهر بعضه فوق بعض وصنعوا هرمًا. كان هاروت الصغير واقفًا على بعد مسافة ما بعيدًا، منتظرًا أن ينتهوا. أمسك بعصاة في يده، جاهزًا ليرمي بها لهدم البناء. أغلق إحدى عينيه وحدد الهدف، ظل يقرب العصاة من وجهه ويبعدها مرة أخرى. كان يندفع للأمام ويقفز، مدعيًا رميها، تطفر يده للأمام لكن أصابعه لا تقلت العصاة.

ركع ثلاثة صبية على ركبهم، مرتبين الأحجار بعضها فوق بعض. كان حصى النهر ينزلق بمجرد أن يوضع حجر رابع أو خامس على القمة، وينهار البناء فوق العشب، ويتدمر الصبية بينما يعيدون بناء الهرم ثانية. حاول هاروت الصغير أن يتعجلهم *أعيدوا بناءه، هذا يستغرق دهرًا..*.

ما الذي يمكننا فعله؟ إنه يظل ينهار تلملم البنائون الصغار. نادى عليهم *أنوش* ذو الأعوام الستة محاولًا حبس أنفاسه: *يا شباب.. تعالوا بسرعة.. إنها بالخارج في الخلاء.. أسرعوا! أنا في طريقي إلى هناك الآن.. هل سمعتم ما قلته؟ في الخلاء! دعونا نذهب لنرى! هيا، أفضل الموت على أن أكذب بهذا الشأن، إنها بالخارج..*.

جرى هاروت الصغير خلف الصبي. أنهت مجموعة الصبية ترتيب الأحجار، لكنهم نسوا مجهودهم الذي بذلوه، وحطموا البناء بينما جروا خلفهما. شقق هاروت الصغير، مؤرجحًا العصاة في الهواء مهددًا الرسول: *لو كنت تمزح بهذا الأمر..*.

أقسم... أمسك الصبي الصغير بالغرزة في جانبه بينما جرى *رأيتها بأعيني، يمكنك أن تراها في الخلاء، كانت واقفة بالقرب من الجدار*.

اختفى الصبية خلف السور، وراقبوا ناخشون سرًا. كانت في الحقل وفرشت الملاءة التي خاطتها للتو على الجدار الحجري، ومدته من الطرف للطرف الآخر. همس أحد الصبية ناظرًا إليها: *أين

هي؟* استجاب هاروت الصغير دون النظر لصديقه، وظل محققاً بثبات على ناخشون* حسناً، إنها في بطنها...*، صرخ أحد الصبية معلناً عن نفسه من مكان اختبائه: *اللعنة عليك يا ابن التركي!* أمسك هاروت الكبير بالصبي الذي هتف بذلك القول من عنقه* ماذا تقول أيها الجرو الصغير؟* تراجع الأطفال إلى الجدار خائفين.

تمتم هاروت الصغير: *لم نكن نقول شيئاً، أتينا لرؤية الرجل التركي*.* شرح سيساك: *كانت ولادة صعبة، من المحتمل أن القابلة ساتو أخذت رشفة أو رشفتين من الفودكا، بينما كانت تطهر بها كالمعتاد، وانزلت وسقطت على اللوح، وتحطم دخلها من البيض الذي كسبته بكدها من تلك الليلة على الأرض في ثانية.. ثلاثون بيضة بينها بيض رومي..*.* *سأجلب لها مزيداً من البيض*.* سار هاروت باتجاه الممر بخطوات بطيئة لرجل منهك، مفكراً في المولودتين، وشاعراً بالتيار الهوائي الذي ضرب الباب السائب عند المفصلات. وبّخ نفسه في هذه الليلة الصيفية الباردة، عندما كانت النار تطلق وأرسل الفرن الحديدي الساخن قطعاً من اللهب متطايرة محترقة في تتورة الظلام.. ما كان شأنه بهذا؟ لماذا خرق عادة ألا يسأل الوافدين الجدد أي أسئلة؟ هل احتاج حقاً إلى أن يعرف من كانوا؟ هل كانوا عندها يعيشون حياة هادئة في القرية؟ وإذا لم يفعلوا كان الحبل المصنوع من ذيل الحصان الوحشي خياراً متاحاً دائماً.

لم يفكر في الأمر قط حتى تلك اللحظة، لم يفكر قط بشكل صحيح حتى اليوم الذي ظهر فيه الوافدون الجدد. لم ينبئ ذلك اليوم بخير. لم يكن عليه أن يجرم خلفه للقرية. لو كان قاسياً بما يكفي، لتركهم هناك في الرمال، وخلال ساعات قلائل كانت الرياح التي بصقت بالزبد على الشاطئ، لتقتلهم برطوبة البرد الذي جلبته فقاعات الأمواج من البحيرة...

ذكرته رطوبة البرد في القبو بكم كان يوماً مسالماً.. كان هناك ثلاثة منهم على شاطئ البحيرة؛ الغراب، والقطة، وهاروت، والرياح أيضاً. لكن سيقان الرياح كانت مقيدة وتتدلى ببؤس في الرمال في مكان ما، تفرقع من وقت لآخر، وتقرّد الرمال على الأمواج ببساطة لتذكرها بوجودها.

جثم الغراب على فرع مثل تمثال، يبرز عنقه بينما يشارك يدي هاروت المخضبة بالدماء دون أن يرمش. كان يضغط بسكينة في صخرة كانت رابضة في الرمال وينظف نصلها بخرقه مخضبة

بالدماء. ثم يضع طرف السكين في بطن سمكة ويمررها عبر جسمها كله حتى الخياشيم. ثم يبعد السكين جانباً، ويمسك بأحشائها في يديه مقتلعاً إياها ببراعة، ويرمي بها للقطة، بينما يسقط السمكة في وعاء خشبي مدفون في الرمال. كانت القطة بعين خضراء وأخرى صفراء، تشم أمعاء السمكة برضا، وتخرخر (صوت القطة المسرورة) حول أجزاء من أمعاء السمكة. لا يضيع الغراب وقتاً، كان يهبط ويمسك بالأمعاء، منزلقاً بها عبر الرمل المبقع باللون الأحمر، ويرفعها ويطيّر بها بعيداً.

لا يضايق هذا القطة ولا تطارد الطائر، فقد أرهقت نفسها بأكل تلك الجيفة، وتخرخر وعيونها عالقة بظل شجرة، وعنقها مدفون في فروها الوفير. كانت ساق هاروت اليمنى مجهدة من القرفصة. كان يقوم على قدميه، ويقف ويهز ساقه في الهواء محاولاً إنعاشها. كان يقلب محتويات الوعاء بالملعقة ويضيف حفنات من الملح على السمك، ثم يقلب ثانية. يغرق السمك في الدم والملح حتى يتم تخليله جيداً، ويعود لموقعه مرة أخرى ويقرفص، ثم بعد برهة يعود الغراب ويجثم على الفرع...

استخدم السكين ليخدش حراشف السمك ويصب غضبه عليه. *أنت أبله حقاً..* كان يجادل فازجين في عقله، ويغرّز سكينه مرة أخرى عميقاً في بطن السمكة – كما لو كان يخترق قلب عدو –

ويمررها بانفعال سريع حتى الخياشيم. لا يستطيع مسامحة نفسه؛ لم يكن عليه أن يستسلم أبدًا.. جاء وبدأ في إخباره قصة كيف أنه منذ سنين عديدة مضت في حياة سابقة، قابل جنرالاً روسياً قرب بايازيت، وتبادلا أطراف الحديث، وضحكا معًا. أطلق دعاية عن نفسه *هل تمكنت من الضحك بالروسية؟ ها ها، أيها الوغد، هل كان أي أحد يمكنه الضحك مثلي؟*

طلب طلبًا في النهاية: *أطفالي المساكين، يتمتعون حقًا إذا لعبت لهم أكروبات في المنزل وسليتهم..*، وهكذا مد حبلًا متينًا وقفز عاليًا وللأسفل عليه، ووقف هناك ونظر من تحت مصفًا وسعيدًا مثل الجميع. ثم هبت الرياح.. *هل كانت الشيطان؟ من أين أتت في هذا اليوم المشمس؟*.. المهرج لديه ذقن وشارب مزيفان عندما اندفع سريعًا لأعلى، وكان حليقًا تمامًا عندما هبط للأسفل. حملت الرياح فازجين بعيدًا عن الجلد وأخذت كل شيء؛ ملابس، وذقنه، وشاربه.. وهبطت به عاريًا مثل يوم ولادته. حملت الشارب والذقن والتقطها بيرش ومزقها خيطًا خيطًا، مرسلًا إياها للسماء.

آخر شيء اشتراه بيرش كان الذقن والشارب المستعارين.. من يدري أين التقى بهؤلاء الغجر، وبأي لغة تكلم معهم، وكم دفع لهم في المقابل؟ اشترى الرجل تلك الذقن المستعارة والشارب ولم ير مشكلة في ارتدائهما، استخدمهما بيرش بداية، ثم فازجين. كان يضعهما في عربته ويمضي متسكعًا حول العالم. في أرات كان يقول إنه من أرتاشات، وفي أرتاشات كان يدعي أنه من إيريفان، وفي إيريفان يقول إنه من بايازيت، متحدنًا مع الجميع، مشاهدًا العالم، بائعًا بضاعته ومتاجرًا في السلع المختلفة، عائدًا بأمان وصحيح البدن إلى جباله. دعهم يخمنون من يكون إذا استطاعوا. لكنهم الآن ينقطعون عن العالم بسبب شخص أبله. *اللجنة!* كره فازجين، لكنه هدأ نفسه *ما جرى قد جرى.. عاجلاً أو آجلاً علينا أن نقدم أنفسنا بوجوهنا الحقيقية على أي حال*.. مسح عينيه بذراعه، شعر بثقل في قلبه عندما فكر في بيرش، اشتراه كعبد وعلمه كيف يقرأ ويكتب، وكيف يصطاد.. يمكنه تذكر ألف شيء وشيء جيد يرتبط بذلك الرجل، لكن لسبب ما عادة ما يعيد إليه التفكير فيه ذكرى ذلك اليوم المميز. كان بيرش راقداً بارداً لا حياة فيه مثل صخرة. عندما رفع يده وهزه من كتفيه، لم يكن يتخيل قط أن كائنًا حيًا يمكنه أن يكون بهذه البرودة. أرسل مستدعيًا ساتو، التي كانت تقوم بجلسة مساج للعظام المؤلمة لزوج بافاكان بشحم دب في تلك اللحظة، رغم أنها علمت بأنها لن تفيده، لكنها تمسكت بأمل مبهم أنها ستفيد، وعندما تأوه المريض من الألم أوقفت المساج وسألت: *هل تستطيع الشعور بالراحة؟*

لا، لا أستطيع، كان يتألم وأسنانه تصطك ببعضها. *خلال دقيقة..* وبدأت تمسد بحماس أكبر وسكبت المزيد من زيت آخر كذلك، *سيساعد ذلك في دقيقة*. جلست بافاكان وأخت زوجها بعضهما قرب بعض، ونظراتهما الدامعة تراقب ساتو وهي تعذب نفسها بالمساج. تتعاطف زوجته قائلة: *لو فقط مات سريعًا، سيكون عناقًا له ولنا*. همست لها القابلة: *لا تتعجلي عمل الرب*، معترفة في أعماق روحها أن موته هو الخيار الأفضل حقًا. *تظنين أنك سترتاحين بمجرد موته؟* الزيجات التي تبقى طويلاً جيدة؛ لأنها تجلب الاستقرار لحياة المرء، صحيح أن الحياة التي يتشاركها الناس في مثل تلك الحالات عادة ما تنقل إلى فئات.. لا يبقى فيها حب، وفي العديد من الحالات لا يبقى فيها حتى احترام متبادل، لكن عندما يموت شريك حياتك، فإنهم يأخذون قصة حياتك معهم، وتنتهي حياتك إلى التصحر، ولا يبقى شيء أو أحد ليملاً ذلك الفراغ.. لا يبقى لك شيء تقومين به، سوى الذهاب خلف شريكك؛ لذلك عليك الدعاء للرب أن يمنحه الحياة*.

عندما سمعت ساتو اسم بيرش قامت على الفور، وأنهت عملها دون أن تغطي جسد الرجل المريض، ويداها لا تزال مغموسة في الزيت. وقت وصولها كان بيرش قد رحل تمامًا، لم يقل أي كلمات أخيرة، ولم ينظر لأي شخص بعينه، ببساطة جمع الحياة التي عاشها وتلك التي لم يعشها ورحل. الشيء الوحيد المجيد الذي خلفه كان حفنة من عظام عجوز محتشدة في السرير. ظل هاروت دون أن يقاطع إزالتة لحراشف السمك- يمسح عينيه بأكمامه، منذرًا كيف النقطة بيرش ووضعها في المقعد الحجري الذي جلبه من سنوات مضت، عندما لاحظ ممرًا أسفل النبع الساكن. دخل مدينة كانت مقلوبة رأسًا على عقب. استخرج ممخضة لبن ومسدسًا، وقالوا إنه وجد ذهبًا مع ذلك العرش الحجري. طبيعي أنه جلب ذلك العرش في رحلته الثانية، ولم يجرؤ قط على العودة إلى هناك، ولا أي أحد امتلك الشجاعة ليدخل من ذلك الباب حتى هاروت؛ لأن بيرش أخبره أنه لا يوجد هواء هناك للتنفس، فقط رائحة الكبريت.

كان يجلس هناك حتى الغروب، صامتًا بلا حراك، لا ناظرًا لأعلى ولا لأسفل.. محددًا بلا هدف، وكأنه ممسك بالعالم في عينيه، وكان يرتعد من وقت لآخر، مثل النبع الساكن، راقبه هاروت معتقدًا أن كل شيء كان موجهاً لشخص معين، نوع ما من صلاة، أو لعنة، أو بركة.. ترى من كان المستهدف بتهيئات بيرش بلا دموع؟ واحسرتاه لم يكن هناك أحد. خدعته الحياة كما خدعه الموت. سار أهل القرية به ولم يدعوا أن شيئاً حدث، كما لو كان هو بيرش نفسه الذي عاش بينهم، حيّوه من بعيد وتحدثوا إليه.

يوماً طيباً يا بيرشو، أخبار طيبة، وضعت بقرتي مولوداً!

أهلاً عمي.. لقد تزوجت لتوي، يجب أن نحقل..

أوه، بيرشو الوسيم، ماتت أمي وخلفت وراءها الحياة التي لم تعشها.. نعم، نحن لم نبلغ الأربعين بعد موتها، لكنها كانت شخصاً طيباً حتى إنني متأكد أنها توجت ملاكاً دون أي حساب.
كان بيرش ليبقى جالساً هناك، ساكناً في الوضع نفسه مثل صخرة تنتفس، لكن كل من مرّ به اعتبر أن من واجبه أن يقول شيئاً ما له. صار الناس يعاملونه بالطريقة التي تعاملوا بها مع الرب، يرونه فيقولون بضعة كلمات صار ضرورياً أن تقال. تحدثوا إليه، وطلبوا منه النصيحة، وشاركوه الآمهم ومخاوفهم، دون أن يتوقعوا منه استجابة.

ما إن تغرب الشمس كان هاروت يأخذه للداخل، كان يحمله ويضعه في سريرته، ويكون عليه الدور للتحدث إليه.

لا يتذكر هاروت شيئاً عن دفن بيرش؛ لأنه كان منفرداً بنفسه في حداده.. حتى لحظة تحرك الجثمان بالقرب من مدخل المقبرة وجلس في كفنه، ناظرًا لليسار ولليمين متفاجئاً. تجمد الناس في أماكنهم وأسقطوا الكفن في رعب، وفروا بعيداً. قام ووقف في كفنه، ملتقطاً الوسادة باللون الأبيض كالتلج من الأرض. *ساتو، اللعنة على روح أبيك! لقد صنعت هذه الوسادة لأجل زفاف هاروت. لماذا وضعتها أسفل رأس رجل ميت؟* سار بعدها للبيت والوسادة تحت ذراعه. ظل هناك لثلاثة أيام، وكان الناس مرعوبين للغاية من الخروج عند أبواب بيوتهم أو المرور بالبيوت الأخرى. ذاق بيرش الموت، وهذا يعني أنه لم يعد واحداً منهم، وسبب ذلك رعباً. لثلاثة أيام كان هاروت يأخذه كالمعتاد ويجلسه على العرش الحجري، ثم يحمله للداخل في المساء، ثم في اليوم الرابع سمعت ضجة في الليل.

في الصباح، رأي الناس باندهاش أن هاروت هو الذي كان جالساً على العرش الحجري. سألوا

أين أبوك؟ تنهد قائلاً: *كنت نائماً، فتح الباب وغادر!*. لبضعة أيام تالية بحث الناس عنه في الجبال والوديان، بعدها قال هاروت: *لا طائل من ذلك، لم يعجبه الموت الذي أعدناه له، فذهب لبحث عن الموت الذي أراده..*.

كنا نراه يرحل كما يجب علينا؛ بعيون دامعة، وزهور، ووجبة تذكارية. إذا لم يعجبه الأمر، فهذه مشكلته هو. تنهد العجائز رداً عليه: *فليذهب ويمت بأي طريقة تدخل السعادة إلى قلبه*.
عندما أمسك هاروت ذات مرة بأحشاء السمكة التالية واستعد لرميها للقطة، رفع رأسه، وذابت عيناه في الدموع، ورأى مجموعة من الأشباح أمامه. كان هذا واحداً من تلك الأماكن التي يفاجئك أن ترى فيها كائناً بشرياً، وتحول هاروت إلى رجل أبكم عندما نظر إليهم مرتعداً، العديد من الناس يوجدون سرّاً في الجبال؟

هتف: *من أنتم؟ ماذا تريدون؟* مصدوماً وباحثاً في ذهنه عن كلمات أو أفعال يفترض أن تطرد الشياطين.

نحن.. تتمم رجل كبير السن، وكانت الكلمات تنتثر من شفثيه ببطء شديد وألم، مثل استخدام ملقاط لنتف أظافر. *لسنا من نلام.. هنا نهاية العالم، لا يوجد طريق للعودة ولا طريق للأمام*.
بمجرد أن نظر هاروت لأعلى وفحص هذه الجماعة الشعثاء الهزيلة، تبولت امرأة مثل حيوان تماماً حيث كانت واقفة، وتدفق الركل هنا وهناك، وماءت القطة باستياء، وأطبق الغراب جناحيه على جانبيه.

كحيوان وصل هاروت لحجر الكلس وجر ساقه المصابة ليقوم، والنقت عيناه بتحديد فارغ مثل شخص أعمى من عيني المرأة الواسعة. فكر مرتعشاً *ذلك ما يبدو عليه الموت*. فسر الرجل العجوز الغائب في ذقنه وشعره: *لم تعد لدينا قوة، المرأة المسكينة لا تملك حتى القدرة على أن تقرص*. فحسهم هاروت مذعوراً. علم أن الحياة عادة ما تأتي بمفاجئات، وأشياء عادة ما تحدث حيث لم تتوقعها، وتكون أقل الأشياء توقعا على الإطلاق. لكن لماذا هذا الحدث غير المتوقع يجب أن يحدث على نحو خاص؟ فجأة تقلب وتخبّط الوافدون الجدد على الرمل واحداً تلو الآخر، مثل ثمار عتبة. فكر هاروت مع نفسه *وحدها الشياطين يمكنها أن تكون خفيفة بلا وزن هكذا*. حاول أحدهم أن يزحف، وأمسك بسمكة بأكملها وبدأ يأكلها. حرق هاروت لوهلة مصدوماً، غير قادر على فهم ماذا يجري. أدرك الأمر فيهم؛ لا الجوع ولا ميرهم ولا أي شيء آخر.. فهم محرومون من المشاعر*. أسرع باتجاه الوعاء المدفون في الرمال.

قال بينما استخدم الملعقة الخشبية ليخرج السمك المخلل من الوعاء الذي غسله بعدها في البحيرة وقدمه لهم. *هذا ليس جيداً، لا تأكل ذلك، خذ قضمات صغيرة فقط*. سحبهم إلى النهر الذي فاض سريعاً من الجبال قبل أن يتحول إلى تيارات ضيقة حتى لا يبقى من جوانبه إلا الرمل المبلل، بالطريقة نفسها التي يعلم بها الحيوانات حدود منطقتها بالتبول، أمسك بهم واحداً بعد الآخر من تحت إبطهم وأخذهم، رامياً إياهم على الأرض الخضراء الرطبة لضفة النهر، ثم رش الماء سريعاً على وجوههم. قال: *القرية قريبة، استجمعوا قوتكم ودعونا نذهب*. تأوه الرجل العجوز: *لم تعد لدينا قوة باقية، سنبقى هنا*.

لا يمكنكم البقاء هنا، رياح الليل تضرب الجلد وتدفع المرء بعيداً عن الشاطئ وتثير عاصفة ترابية، شعر بالأسف أنه لم يحضر ثوره معه، لديه داء القدم والفم (حمى البقر) وعُزل في حظيرته مع البهائم الأخرى، حوافرها في الدهن ويغطي وجوها مخاط لزج. تأوه الرجل العجوز

أوه، إننا نموت، إننا نموت، في النهاية عرفنا كم تساوي حيواتنا؟
تمكن بعضهم من مضغ أو لحس قطع السمك الخام، بينما بدأ الآخرون بلا حياة والسمك في أيديهم وهي راقدة بلا حراك في الرمل. تجمعت حشرات حمراء صغيرة على السمك المخلل وعلى أيديهم.

جرى هاروت بعيدًا قليلًا، وأتى بشبكة كبيرة نسجت بأفرع من ندف الصفصاف. رمى بها على النهر تمامًا مثل سد فوق الموقع الذي تدفق منه التيار الأصغر في البحيرة. أمسك في البداية بملء اليد من الشبكة إلى جانب النهر، واستخدم جذع شجرة ليغرسها في التربة، ثم قفز فوق الغدير إلى الضفة الأخرى وأحكم الطرف الآخر من الشبكة في الأرض بجذع آخر، ثم قفز فوق الصخور متجاوزًا التيار إلى الخارج وعاد.

لا تذهبوا بعيدًا.. سأرسل لكم بعض الغذاء عن طريق النهر، وكل ما تحتاجون إليه.. يمكنكم التقاطه من هنا.. حتى أعود لأصحبكم معي أشار إلى السد الذي كونه بالشبكة، الذي صار الآن عميقًا في الماء، والنقطت بالفعل بعض الرغاوي والأعشاب، ثم أسرع إلى القرية.
ينتهي الصيف في طرفة عين في هذه الأنحاء.. تقطف الرياح العاصفة الطحالب من أعماق البحيرة وتجلبها للشاطئ، صافقة إياها على الأرض وجالبة رائحة الماء والطحالب. كان الموج يغسل الطحالب على الصخور الساخنة وتبدو أضعف عندما تتراجع. عادة ما انحنى هاروت على المراكب المتهالكة التي اصطفت مقلوبة على رأسها، وجوانبها مغطاة بالقار، ليراقب الماء لساعات بينما الرياح تضرب الرمال على جسم المراكب.. عندما تتفجر الأمواج من أعماق البحيرة وتهسهس بفوضوية في الأجراف، لا يبدو أنها تعرف أنها لا يمكنها شق الصخور بالاصطدام بها بقوة. وهو ما يظهر من الرغاوي البيضاء التي تبقى من الأمواج بعد أن ترطم الصخور. تتقدم الأمواج الآن بهسهسة عالية، وتجلب معها المزيد من الشيء ذاته؛ الرغاوي.
بالنظر إلى لا محدودية البحيرة، سأل هاروت نفسه: *أين تذهب المياه المتدفقة؟ ماذا تأخذ معها؟ أي خطايا بشرية طلب منها أن تعوضها؟ هل هي تحت التحكم؟ هل تتراجع لدورة أخرى؟ ما التفسير الآخر لما كان الوافدون يقولونه؟* تتوقف الأمواج على الصخور الملساء ذات الشقوق، مسحوقة عندما تلامس سطح الصخور، وتعود كقطرات قليلة متدفقة، جارية عبر الطحالب بالجذور البيضاء التي سحبتها الأمواج على القاع الرملي قبل أن تخمش طريقها إلى خارج الماء منتهية في عقدة على الشاطئ.

تنفس هاروت بالرائحة المعتادة، وحاول أن يفهم.. من هؤلاء الوافدون؟ وما الذي يحاولون قوله؟ مع من عليه أن يشارك لا محدودية البحيرة الآن، وعزلة الجبال والامها غير المتوقعة مثل معجزة؟ في نوفمبر، في المرة الأخيرة التي هبط فيها إلى العالم الخارجي، لم يسمع أو يير شيئًا مثل ذلك.. شعر بالضيق عندما فكر في كيفية أن تمنح طعامه للوافدين، ثم نضعه على عربته، إذا ما كان فيها فراغ باق، وسيجلب معه بعض السمك عند عودته. سيصف السمك المخلل على الصخور ويأمر الأطفال أن يقلبوه من وقت لآخر. ستجففه الشمس وستطير الرياح الملح بعيدًا.. سار متسائلًا إذا ما كان الطعام الذي أرسله كافيًا لهم. عند تلك اللحظة بالضبط، كان فازجين عازف الزورنا يرتعد وهو يعدو للنهر ليغتسل. رش الماء وغسل تحت إبطيه، وأغلق منخاره الأيمن بإبهامه، بينما جمع الهواء في رئتيه واستعد ليفعل الشيء نفسه في منخاره الأيسر، لكنه تجمد! جلب له الماء قطعًا من الجبن، أمسك بها ووضعها على العشب. جلب الماء أيضًا أكوامًا من الزبد وبقايا أصابع

بشرية لا تزال متجمدة في أجزاء منها.

يا للروعة مذهولاً بثروته الطيبة، استخرج تلاً أبيض آخر من الماء ولعقه، يكاد يحك أنفه فيه *إنه عسل!*، امتلأ قلبه بالشك وهو يلعقه، *من يكون غيباً كفاية ليرمي تلك الأشياء في النهر؟ ربما كانت مسممة!* فحص خائفاً وعاءً آخر صغيراً، هذا فيه (جافورما)، قطع الدهن الأصفر لا تزال ملتصقة باللحم هنا وهناك.. التقط قطعة من الجبن وقضمها. تجمد لثانية، مركزاً على معدته والأصوات التي صدرت منها. قال لنفسه: *لا أدري، دعنا ننتظر عدة ساعات، إذا لم أمت، فليس في هذه الأطعمة شيء مسمم*.

عندما عاد هاروت كان المهاجرون راقدين بلا حياة على الرمال الزرقاء! فقط المرأة الحامل كانت تفتح عينيها وتغلقها. سألهم مندهشاً، ناظرًا لليمين واليسار على الناس الراقدة على الأرض، *أرسلت بعض الطعام عبر النهر لكم، لماذا لم تلتقطوه؟*

بالكاد استطاعت المرأة أن تقول عبر شفيتها الجائنين المنتشقتين: *النهر لم يجلب شيئاً*. اقتطع قطعة من الخبز في جيبه، الذي وضعه ليأكل منه في طريقه، ودسها في يدها، لكنها لم تقدر على حملها إلى فمها. تذكر كيف كان يقلل حجم الخبز لقطع صغيرة عندما كان طفلاً، وضع تلك الكسرات في فمها. ولم تكن قادرة على تحريك فمها لتمضغ. أدرك أن عليه أن يسرع. *لا بد من استخدام قطعة قماش لأنقط الماء في فمها*. أوقف عربته بالقرب من الشجيرات فوق الرمل الرطب، ليس بعيداً عن النهر. وضع المهاجرين على العربة وعاد للقريبة. حاول خلال الرحلة أن يتكلم مع المرأة، لكن الرياح جعلت أي محادثة بينهما مستحيلة، أي كلمات تقال كانت تتمزق إرباً تاركة أجزاء من الصوت لتختلط بالرمال الضاربة بقوة. عندما عاد توقع أهل القرية سمكاً منه. في الهواء البارد للقبو، دفع يداً أسفل السلة ليتحسس ببيض الدجاج الرومي. وضع العديد منه في جيبه، وحمل الباقي في يديه، وعند عودته للرواق ارتطمت قدمه بمجرفة في طريقه، وانكشمت فوق الأدوات الموضوعه بالقرب من المجرفة، فاحصاً حرفها الحاد في أثناء قيامه بذلك، *أتساءل إذا ما كانت هذه المجرفة نفسها التي..* لكنه خشي من الطريقة التي نظر بها هاروت للمجرفة أن يكون قد قرأ أفكاره، فقال سريعاً: *مجرفتك يبدو أنها صارت ثلثة، تحتاج إلى شحذها*.

بينما أفرغ هاروت جيوبه من البيض واضعاً إياه على الطاولة، تمتم: *كم مرة قد أحتاج إلى تلك المجرفة هذه الأيام؟* ألقى سيساك نظرة مرعوبة أخرى للمجرفة، منذكراً اليوم الذي اشتعل فيه شجار، وركل والد ناخشون السيد *سارجيس* الباب في أثناء اندفاعه للخارج حتى ارتجت مفصلات الباب السميقة.

عنقه.. عنقه.. يجز عنقه. تعال بسرعة رجاء.. النجدة! وضع العجوز أونيس قدماً في طريق المجرفة الحادة التي كانت في طريقها إلى سارجيس، وهو يزحف ببطء على الأرضية صارخاً في رعب: *الجميع، تعالوا هنا.. عنقه.. سيجز عنقه!*

ليس لديه الحق أن يتنفس الهواء نفسه مثلي كان هاروت ينخر أثناء قطعه هذا الطريق وذاك، محاولاً التحرر من الناس الذين كانوا يحملونه، معتقدين أن لا شيء يبزر هذه الهزيمة، لا قوة العدو، ولا عدم قدرة المرء، ولا حتى القدر أو إرادة الله، *فعلوا هذا كله أمام عيني ولم يفعل شيئاً.. لم يقتلهم، ولا قتل*.

قال الفلاحون من أهل القرية: *أشفق عليه*. كان رد هاروت: *أي من سيصدر صوتاً ساجز رقبتة بهذه المجرفة حادة النصل*. اغتصبت المغنية العذراء لدير أراكيلوتس في الطريق من فان إلى

إيريفان، وعند عودتهم للقريّة كانت بطنها قد انتفخت كثيرًا. أمسك هاروت بجاروف واندفع للأمام...

من اليوم التالي فصاعدًا عاش سارديس خارج القرية في الجبال – جبال؟ لقد كانت مثل عروش ملتصقة بكعب السماء – وتأوه في الليل من الرعب هناك. حاول مرة أو مرتين في الشهر أن يعود، لينتهي به الأمر مواجهًا هاروت، وهذا الجاروف حاد النصل في يده، مستعدًا لجزّ عنقه، أو خنقه بيديه العاريتين. كان الفلاحون يقولون له: *ستتأوه كذلك إذا اقتحم تركي من سلاح الفرسان بيتك في الليل، ودهس قدرك بحوافر جواده، ساحقًا إياك في سريرك*.
كان هاروت يقول: *لا، ليس له الحق ليتنفس الهواء مثلي*. وكان سارجيس يعود بمرارة للجبال، حيث كان يعوي مع الذئب.

أحيانًا كان الفلاحون يلتمسون الشفقة لدى هاروت. كانت هناك مرات عندما كانت حزمة العواء تصفق السماء. وكان أحد الفلاحين يقول وأذناه معزولة عن أكثر تلك الأصوات حزنًا: *أحد تلك العواءات تأتي من سارجيس المسكين*. وكان آخر ليقول مشككًا: *كيف لك أن تعرف؟ كيف يمكنك تمييز صوت سارجيس عن صوت عواء مربيك مثل الريح تمامًا كهذا؟* فيرد عليه آخر: *عواءات الذئب جوفاء، لكن عواءات البشر تحمل الأمل*.

أيًا كان ما قالوه أو كيف حاولوا إقناعه، لم يكن هاروت ليلين أبدًا. حاولت ساتو مرارًا وتكرارًا أن تقنعه، كانت تقول له: *هاروت، عزيزي، في قدر كل امرئ تركي يخصه ليوواجهه، ما فائدة طرده بعيدًا؟* وكانت تهدئ من روع ناخشون، *قلب هاروت نقي كنفاء كبد خنزير، سيزول غضبه، وسيعفو عنه؟* لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

كان المهاجرون ممتنين لموقف هاروت الصلب؛ فما رأوه محفورًا في ذاكرتهم صقل ألمهم وبلوره في داخل نواتهم، حتى إنهم اختزلوا وطنهم الأم الضائع، وأفراد عائلاتهم الذين فقدوهم في دموعهم. كانت هناك أنات وكلمات متقطعة فقط في حسرتهم، لعنت الأكراد أيضًا. *كان الأتراك يفترسوننا، مستولين على أرضنا وتاريخنا، لكن لماذا انضم الأكراد لحملتهم الدموية، كان هذا أمر يفوق تصورنا*.

لم يكن سارجيس ذئبًا طبيعيًا، فلم تكن عواءاته قادرة على اختراق السماء، أو الذهاب بعيدًا بما يكفي. عوت ذئب الجبل بصوت أعلى لتجاوز هذه السخرية، أووه، أووه.. وانضمت إليهم فارسو، هادرة بكلمة نادرة الاستخدام بين الحين والآخر.. *صلبوهم.. صلبوهم واحدًا تلو الآخر*.
قاطعها الفضوليون من أهل القرية، *كيف صلبوهم يا فارسو؟ كيف؟ مثل المسيح، أم أقحموا أظافرهم في أجزاء أخرى من أجساد ضحاياهم؟*

كانت فارسو تئن وتتأوه، مجادلة الرب في ذهنها، *أوه، يا ربي، ألم يكن هناك سبيل آخر لإنقاذ العالم؟ هل حقًا كان كل شيء فاسدًا لهذا الحد، حتى إن الشيء الوحيد الذي أمكنك فعله، هو أن تأتي وتستخدم الصليب؟* وتضيف بصوت عالٍ على الملام: *لماذا يجب عليّ أن أتكلم عن هذه الأشياء الحزينة وأسبب احتقان الدم في عروقك؟! يجب عليّ أن أحكي حكايات أسطورية بدلًا من ذلك*.
النقط هاروت البيض بأصابعه، ووضعها في حجر سيساك الذي قال: *في دير الزور، كانت حياة الأرمني مساوية لقطعة ذهبية واحدة. كان الآباء يعطون للإنكشاريين قطعة ذهبية لكل واحد، ليحموا أطفالهم من الاغتصاب أو التعذيب حتى الموت، ويلتمسون منهم أن يقتلوهم بإطلاق النار عليهم.. هنا في الوقت ذاته.. توأم تركي بعشرين بيضة. أي صفقة عظيمة*، وتكلف سيساك

الابتسام في وجهه. هتف هاروت صارخًا: *هل تجرؤ.. لا تتجرأ باستخدام تلك الكلمة لوصف الأطفال، لن تكون ناخشون قادرة على تحملها. أولئك الأطفال يجب أن يعيشوا، لا تصفهم كالبيض، لا تُصعب الأمر عليهم، لقد رأوا الكثير من الرعب والإهانة من قبل أن يولدوا، لا حاجة بك أن تضيف إلى عذابهم*.

تراجع سيساك خوفًا، ثم وضع البيض في جيوبه، ووبخ هاروت: *أوه، بربك يا أخي.. هذا الاهتمام الذي تبديه لـ ناخشون.. أقول لك، على ذلك الشاب المهاجر المسكين أن يأتي.. ما الذي تحاول فعله على أي حال؟ أنت تصب جام غضبك على تلك الأمم، دع ذلك الشاب يأتي، وارع عائلته..*.

هتف هاروت: *لا، مستحيل، ليس لديه الحق.. ذلك الشاب لن يضع قدمًا له في هذه القرية*.

إذا كانت ناخشون نفسها قد غفرت له، لماذا تجعل الأمر صعبًا لهذه الدرجة؟

يمكنها أن تغفر له، لكنني لن أفعل؛ هذه قريتي، يجب عليه ألا يعيش فيها.

بربك يا رجل، ما الذي فعله بحقك على الإطلاق؟

أغلق هاروت جفنيه ببطء، وقلبه لا يزال ساخنًا مثل شمس غاربة *أوه، لا أدري.. هناك العديد والعديد من الأشياء التي يجب أن تقال لكنها تترك ولا تقال*.

تخلص من ذلك الجمل الذي يتقل كاهلك.. لماذا تخلق لنفسك الأزمات؟ الناس يقولون إنك تضرر شيئًا لـ ناخشون من الطريقة التي تتصرف بها.

أنا رجل يحافظ على العفة؛ فكيف أكن عاطفة لواحدة دنسها تركي؟ حتى التفكير في الجنة لا يغويني؛ لأنني أعرف أن الشيطان كان هناك ذات مرة!

للحفاظ على النظام في القرية، كان هاروت يحوم ويتسكع في الليل مع كلابه الذنبية⁴، وراه أناس القرية واقفًا في صمت تحت نافذة ناخشون، مختلسًا النظر للداخل، مراقبًا إياها وهي تتجول في منزلها عارية، وهي تأكل، وهي تبكي.. يعلم الجميع ذلك، اختلطت المياه الغامضة للنبع الساكن بدمائه، وكانت تتلف الضفاف كلما تدفقت. حتى إن *أونيز* أمسك به ذات مرة محققًا فيها وهي تستحم وملؤه الرهبة. قال له شاعرًا بالأسى تجاهه، *بني، لا يمكنها أن تحب رجلًا. هذا العذاب الذي عشناه ما زال ينخر فيّ من الداخل، لدرجة أن أذاني صارت صماء حتى لتهويدات أمي التي اعتادت أن تغنيها لي، لكنها لا تزال تسمع صرخات ناخشون عندما كان الأتراك والأكراد يجرونها بعضهم من بعض لينالوا منها. دعها وشأنها. لا يمكنها أن تحب رجلًا بعد الآن*.

كان هناك صمت للحظة، قطعه أونيز بتهيدة: *أنا لا أدري ما الذي يفكر فيه رب السماء عندما يكتب على كائن بشري ألمًا كهذا.. لقد غير هذا الألم الطريقة التي بنيت بها روحي*. نظر له

هاروت، وسأله بصوت حاول أن يبدو لا مبالٍ قدر الإمكان: *هل كانت حقًا مغنية؟* تأوه أونيز: *أوه، يا لها من مغنية، كان الأمر كما لو أنها تستطيع غرز صوتها في دمانك*، وواصل محاولة إقناعه *ارفع هذا الجمل عن كاهلك، دع هذا الرجل يأتي، وكن عميد عائلته*.

مستحيل.

لم تكن لتقول ذلك لو كانت لك عائلة وأطفال.

ما هذا؟ هل يحتاج العالم دمًا طازجًا ليشربه، هل يحتاج إلى لحم طازج ليمضغه؟ لا سبيل لذلك.. هل يمكن لأحد وضع الكثير من الثقة في العالم بما يكفي لجلب جيل جديد إليه؟ أفضل أن أخذ دمي معي، أنا على يقين أن الرب يمكنه استغلاله في مكان ما، سيبقى اسمي، لقد أسموا هاروت الصغير على اسمي، هذا هو المهم.

ظل سيساك هادئاً لفترة، ثم صار عدائياً. *لقد رأوها تذهب لبيتك.. أقصد ناخشون*.
*نعم، ربما جاءت مرتين أو ثلاثة مرات، أنت لي بوسادة في مرة، وملاءة سرير في الأخرى..
تظن أنها لا تزال بين الأتراك، وترغب في ملاطفتي بالهدايا*.
*نعم حقاً، وسادة وملاءة؛ هل قلت إنه كان هناك شيء ما آخر؟ هكذا يبدو الأمر عادة. وسادة، ثم
ملاءة.. ثم.. لن يتركوا ذلك السرير فارغاً.. سيأتون ويتأكدون من أنه مشغول*.
بحق الجحيم أخرج من هنا، أنت.. اندفع هاروت واقفاً على ساقه التي تؤلمه.
صفق سيساك الباب خلفه مذهولاً وشاعراً بالإهانة عند خروجه. ذهب ليؤجر ساتو التي كانت
مخمورة ومتعبة بعد حملها للمرأة التي وضعت مولودها. زفرت مزيجاً من الفودكا والثوم، وعيناها
المتعبة ترمش أسفل جفونها المجعدة الحائرة، وقالت بفخر: *تلك الطفلة الأولى التي خرجت
للحياة.. أوه.. إنها صحيحة البدن، نظرت لي تماماً كما لو أنها تقول لي، أنا هنا، اقتليني. الطفلة
الثانية، أوه، كم شعرت بالأسى عليها، بدت بريئة للغاية.. بريئة للغاية، حتى إنها كانت بمثابة
خطيئة.. بريئة لدرجة أنها لم تعد فضيلة بعد، لكن خطيئة. على أي حال.. أجري كالمعتاد، ثلاثون
بيضة*.

بعدها بثلاثة أيام، بعد أن هدأت ساتو ولا أحد كان قد ولد بالقرية، ذهبت لبيت هاروت، وكان قد
وضع إناء على الفرن الخشبي ليشوي سمكة السلمون المرقطة مع القمح، وكانت نار الفرن قوية،
وططق الخشب بينما ارتطمت أسنة اللهب بالجدران.
صباح الخير، جلست بجوار الفرن، تلين بالحرارة المنبعثة، وتراقب الحبوب الحمراء لطشيش
القمح، مبللاً بخوفه من النار، يفرقع بعضه في بعض في الهواء ثم يسقط في الإناء.
صباح الخير، أخذ طبقاً من فوق الطاولة الخشبية التي كان عليها بعض القمح المشوي البارد
ووضعه أمامها. تحدثت دون ذكر اسم، دون مقدمة، كما لو كانت تكمل حديثاً ترك دون إنهائه:
لقد استأصلت رحمها وأزاحتها مع كل أجزائه.

لماذا؟

كان تالفاً.

كان عليك علاجه.. أليست تلك وظيفتك؟

لا أدري إن كان باستطاعتي.

تتهد وقال: *لا تخبريها بهذا*.

لم أكن لأخبرك أنت أيضاً، إذا لم أكن خائفة أن.. قامت وسارت باتجاه الجردل الخشبي بالقرب
من الباب، واستخدمت إصبعين لتمسك بذبابة غرقت في شراب الزبادي اللزج الملتصق بكوب من
الفخار، وأخرجته له عندما تساقط من جوانبه، *تناول بعضاً منه، الثان⁵..*

كنت خائفة أن... خائفة من أن تتزوجها.. من يحتاج لرجل بلا وريث؟

في تلك اللحظة، مر الصبية الثلاثة ببيته، ممسكين بقطعة من *الجاتا* بين أيديهم، متدافعين
وضاحكين. أشارت للأطفال، وحاولت إضفاء بعض المرح لتهدئ من روعه، *أتساءل أي من
أولئك الصبية ابنك*.

قال مُحرجاً: *لماذا يكون لدي أي شيء مشترك مع أولئك الأطفال؟*

*بربك يا هاروت.. لقد لعبت الكثير من التخفي والبحث، الاستغماية مع أمهاتهم في حقول التبن..
أيًا كان ما تقول، أعتقد أن الصبي الأسود له عيناك نفسيهما*.

كفّي عن ذلك، الآن....

الناس الآخرون الذين عانوا في القرية يفحصون بدقة ويكابدون، هكذا كان العرب لأربعة قرون مضت، لكن يحسب لهم أنهم لم يقتلوا الرغبة في الحياة. خلفوا بعض الأطلال وراءهم، حتى ذكرى مذبحة الأرمن عام 1896، كل أنواع الثعابين كانت لتحيا، ودورة حياة ثعبان هي حيث اتخذ بيرش مقعده عند أعلى ذروة، ووصل العالم لنهايته في الثلج العظمي الهيئة لقمة الجبل.. مقبرة *مينك* الدليل الوحيد على وجود حياة سابقة في القرية، وهناك صورة بسيطة على شاهد القبر؛ دائرة صغيرة – رأسه عبارة عن دائرة كبيرة – وبطنه المنتفخ، تخرج من جوانبها الخطوط، ذراعاه وساقاه، وسازة موضوع على بطنه – من المحتمل أنه عزف على الساز – وتاريخ محفور 1666، مع كتابة *هنا يرقد مينك الذي مات على أيدي الخارجين على القانون...*.

لا أحد عرف من هم الخارجون على القانون؛ يمكن أن يكونوا أي أحد، فالعديد والعديد من الشعوب جاءت وذهبت في هذا العالم.. على أي حال، كانت هناك حياة؛ لذلك قام بيرش وهاروت بإعادة إحياء القرية. وعندما استطاع المهاجرون الجدد بالكاد الهرب من المذبحة في 1915، كان هاروت – الذي هاجر 1896 من *لاتار* وبدأ يؤسس القرية على الأطلال التي خلفها العرب – صار بالفعل مواطناً محلياً، رغم أن شجرة عائلته بدأت داخله ولم تثمر أي أحد بأسماء أخرى. لم يكن هناك قبة كنيسة، ولا صفوف من الصلبان الحجرية في مقبرة، ولم تتمدد ظلالها مع النور عند غروب الشمس. ولم تكن هناك جدران أو أسوار لتضع حدود الحياة.. كان الناس ينزلون عبر الصخور كالسحالي، وعاشوا في الخفاء، وأطعموا أنفسهم بما يزرعونه على ماء الأرض. لا صليب، ولا كنائس أو كهان.. رأوا العديد من الكنائس المحترقة، والصلبان المتكسرة، ورجال الدين المذبوحين، حتى إنهم لم يعد لديهم مكان للرب سوى أن يقبضوا عليه داخل أنفسهم كالبض على الجمر، وفي صلوات مشفرة، دون اهتمام خاص بالطريق الخالص إلى الجنة القشبية. لم يعرف أحد أين كانت القرية، كما لو أن الزمن ذاته يخشى الذهاب لهنالك؛ لأن الصخور المسننة ستقطع فيه، فالبحث الدقيق حتى لن يظهر أي شيء يمكنه أن يتقلص أكثر من ذلك إلى غبار، فالجبال كبيرة جداً ليحدث لها ذلك. لم تنم القرية من خلال عدد المواليد فيها، لكن من خلال عدد المرات التي غادر فيها هاروت للذهاب إلى العالم الخارجي. وكان عادة ما يجد شخصاً بدا له مفقوداً، أو شخصاً ما يهرب من القانون، من الأتراك، أو من امرأة، أو من نفسه ذاتها.. عندما يعود للقرية كان هاروت يزيل أولاً القش الذي غطى به الملح الصخري، ثم يخرج القطع الرمادية منه، ويساعد شخصاً ما رقد تحته، شخصاً أعطاه شرحاً مطولاً خلال الطريق من هناك.. *لا أحد يهتم بماذا فعلت أو من كنت. هنا، أنت كائن بشري لائق، وتعيش حياة لائقة، وإلا سأعود بك في العربة نفسها وعيناك معصوبتان، وأضعك تحت السمك المخلل، وأعيدك إلى حيث التقطتك*. لن يسأل أي أحد وافداً جديداً أي أسئلة غير ضرورية. *يجب عليك ألا تسأل الناس أسئلة عندما يكونون واقفين على أطلال أقدارهم*. كل واحد في القرية كانت لديه الحرية في خلق حكايته الخاصة، وأن يحرر حيواته الماضية أو يُجمّلها كيف شاء.. وللقرية ميزة أخرى، هي مثل مقبرة؛ ما إن ذهبت إليها لا تخرج منها أبداً.

هاروت فقط من عرف الطريق إليها وطريق الخروج منها، كان ينطلق إلى العالم الخارجي عدة مرات في العام.. كما كان بيرش يفعل من قبله. أبقى على الطريق إلى العالم الخارجي سرّاً لا يفشيه لأحد حتى كبر هاروت، الذي ورث الطريق منه؛ لأنهما عاشا معاً في أوقات هروبهما.

بالطبع كانت هناك لحظة ما في حياة بيرش قررا فيها أن يعلننا عن نفسيهما، ليحكيا عن العالم الذي وجدا فيه، لكن بعد مذبحة 1896، جاءت مذبحة 1905، وبعدها مذبحة 1915... لم تكن هناك دماء أكثر أو مأساة أكبر مما كان في تلك السنوات. كانا سعيدين أنهما لم يرتكبا ذلك الخطأ الأحمق، بالاعتقاد في أنه كان هناك مكان يمكنهم الاختباء فيه من مطاردات الحياة. قال له بيرش: *لا تجعل العالم يتطفل على حياتك أبداً أبداً..* لكن رغم ذلك تطفل العالم.

ناخشون.. سمى أهل القرية المرأة الحامل بهذا الاسم الذي يعني *جمال* بعد شهر من تخلصها من خرقها البالية، وبعد أن أخذت حماماً وتناولت وجبات عادية، واستعادت وزنها، حين رأى أهل القرية أن الأثرak والأكراد لم يكونوا فقط قادرين على القسوة، لكن كانت لديهم غريزة التدنوق أيضاً. كانت جميلة حقاً؛ ببشرة بيضاء، وجسد أملس، وبدا أنها بلا عظام مثل ثعبان. قبلت المرأة بسعادة اسمها الجديد، تاركة اسمها القديم مع محنتها في صحراء دير الزور. لكن واحسرتاه، كان العواء الذي يأتي عادة من تحت الجبال، والطفل الذي كان يتقافز في بطنها، كانا يضربان ضميرها بركلات حاسمة. كانت نادراً ما تغادر البيت؛ لأنه رغم همس الناس حولها بشفقة وغفران: *من سوء الطالع.. ما الذي كانت تستطيع المرأة المسكينة أن تفعل؟* ظلوا يرمون بنظرات خاطفة فضولية إلى بطنها. وكانت تتخبط تحت مريلتها بلا حول ولا قوة، تدير أصابعها وتنثيهم حتى تُسبب لها ألماً..

تحملت ناخشون حملها بفخر، رغم أنها أحست بنظرات الإشفاق التي رمق بها الناس بطنها، والتقطت أذناها الشائعات التي أطلقت الحكام عليها. على سبيل المثال، من الذي أعطى الحق لتلك الأرملتين؛ مارجوش المثيرة للغثيان، وجولينار العجفاء الفظة، أن يطلقن الشائعات أثناء خطوبة ابن أرقام؟

أنت مارجوش للقرية على كعوب هاروت، ممسكة بأيدي طفليها، وكان هذا العام عندما لدغها ثعبان أخضر سام وهي تجمع الحطب في الجبال، وأسرعت بها النساء إلى القرية وهي تشتعل بالحمل؛ للحفاظ عليها حية، حتى إنها بدأت تثرثر بهذيان في حالة لا واعية عن كيف أنها خلّفت وراءها أطفالها الثلاثة الكبار، وفرت من بيتها مع طفليها الصغار فقط. زوج جولينار كان جالساً على حمار عابراً المضيق عندما هبطت الأرواح الشريرة في التو، ودفعت الحيوان للجنون، فترك الطريق واندفع رأساً إلى الهاوية.. مرة أخرى، ليمنح الرب طول العمر لـ هاروت، ربط الرجل الحبل المصنوع من شعر الخيل حول وسطه وسحب الرجل.. كانت كل عظامه متكسرة، لكنه حظي على الأقل بمقبرة، ولم ينته به الأمر ضحية للحيوانات المتوحشة. وهاتان الأرملتان؛ مارجوش التي تدس الجاتا مع الحلوى وتملأ بها فمها، وجولينار التي تمضغ بعض القمح المُمصص، وهما واقفتان تحدفان في بطن ناخشون – كان بإمكانهما على الأقل التفكير في النظر إلى مكان آخر حتى لا تتمكن من تخمين ما يدور بخلدن – بينما يتها مسان بشراسة في أذن بعضهما بعضاً. *هناك بعض الحظ في البؤس أيضاً.. أبناؤنا ربما ليس لهم آباء، لكن على الأقل هم يعرفون ما يربطهم بهم. هل يمكنك تخيل أن يكون لديك أطفال مثلها مجهولو الأب؟*

أوه، أستغفر الله.. ليكن مثل هذا المصير بعيداً عن بيوتنا.. وكانتا تبصقان في صدرهما كما جرت العادة لطرد العين الحاسدة. ووصلت أطراف من حديثهما الذي نطقن به عالياً عن عمد إلى أذان ناخشون..

*وماذا عن الرجل الذي تصاحبه الآن؟ تخيلي البقاء مع شخص يجبر أباك على العواء مثل ذئب! يا

له من أمر مثير للغثيان* وتقضم جولينار في الجاتا بوحشية حتى إن المرء ليتوقع أن تبدأ في النزيف.

قالت بيرو: *هاروت ليس بهذا السوء* – بينما عيناها مسلطة على ناخشون وكان جلياً أيضاً أنها كانت تنتصت واستطاعت سماعهم – *من المحتمل أنه أخذ أباهما إلى مكان آخر الآن.. ليعوي؟ فقط العدم من يمكنه البقاء والنجاة من البرد في تلك الجبال، هل سيكون قادراً حتى على حصد الهواء في رنتيه ليعوي؟*

تظاهرت ناخشون بأنها لم تسمع كلامهم، أو أنها بالأحرى كانت خائفة من أنه في جملة أو جملتين ستعلن أنها مصابة بالجذام مثل *جوب* المبارك، وسيتم تحذير العالم من دنسها، حتى إنه يتوجب على الجميع البقاء بعيداً عنها حتى لا يصابوا بالعدوى. لكن مارو قفزت وتدخلت في الحديث -مارو نفسها التي دفعت لـ ساتو خاتماً فضياً بدلاً من البيض لتوليدها، نفسها التي أجهضت مولودها وواصلت علاقتها مع زوج أختها بعدها، نظرت لـ ناخشون من أعلى لأسفل مشاهدة إياها مرتدية ثوباً صوفياً برقبة خاطته بنفسها- *إنها امرأة جميلة* كما لو كانت غائبة، ثم أضافت كما لو لنفسها لكن على مسمع من الجميع، *لكن اللعنة على هاروت هذا، لديه ذلك الرأس فوق كتفيه.. هل كان عليه فعل شيء سيسبب له الضرر؟*

استدارت ناحية ناخشون وتقيأت، *يقوم هاروت بعمل طيب أن ييرعاك*. لكن رأته بعدها تحقن وتتجمد في مكانها، وقد ندمت على أفعالها بعض الشيء. *برغم أنه لا داعي لهذه الشائعة، فأنا ما كنت لأسميه حباً، إنه فقط أن هاروت الذي نعرفه هو مثل رب.. هو يساند كل اللائي تعرضن للاغتصاب، ويعانين من البؤس*. قالت هذا ومدت عنقها على استقامته بإحساس المنتصرة. قالت مرتعشة من الخوف: *نعم، ولأنك عذراء مثل الموت، فبدلاً من أن تغتصبي مثل هذه الحياة ذاتها، فإن ظهور الرب لا يسبب لك ضيقاً*.

عندما وصلت هاروت أصداء تلك القصة فكر *يا للروعة...* وكان سعيداً بانتفاضة ناخشون حين قالت: *إذا كان هناك بعض حياة فيها بعد*، عندها استدارا باتجاه فارسو وتذكرت النصيحة التي أسدتها إليها: *حُكي غبار الفحم على وجهك.. دعهم يعتقدون أنك سوداء مثلهن..*، والتقطت قطعة من الحلوة من فوق الطاولة ووضعتها أمام فارسو. *فارسو أيتها الجميلة.. لماذا لا تأكلين شيئاً؟* عاشت فارسو في مدينة ما، وامتلكت محل معجنات، اعتادت أن تخبز نوع القلاوة المُسمى *سُرة السيدة* مع خيوط دقيقة جداً من الدقيق يمكنها أن تمر من سم الخياط، وكانت لتخلط اللوز والجوز مع العسل وبهارات شرقية جنباً إلى جنب مع سكر ينز من أصابعها، وتقوم بكل ما يمكنها لجعل معالجتها للعجينة ممتعة لحياتها، وكان أي من أكلها ليشعر بنفس متعة تقبيل شخص ما لسُرة السيدة. وانتهى بها الأمر الآن في مكان حيث إنها حين تغمس العجينة في الزيت – الحلوة مع الماء المسكر – يعتبر أعظم الأشياء. ما الذي يمكن لـ فارسو البائسة أن تفعل؟ لا الحقيقة يمكنها أن تساعد ولا الكذب؛ لذا فهي تهرب وتختبئ خلف حكايتها. لوى حسان الأمير كاحله في الغابة؛ لذا قمت بتجبيره. إذا تحسن ذلك جيد، أو كنا سنقتله. لكن ابن الملك المسكين.. كيف يفترض به أن يسير عائداً على طول الطريق؟ انظري كيف أن الجو مشمس وصوبت يديها للخارج في إيماءة عدائية نحو السماء التي صارت معتقة ويانعة في حرارتها.

أصابت فارسو القرية بأكبر صدمة لها. في نهاية المطاف، رأوا العديد من المهاجرين والأتراك؛ هل هناك مسيحي لم يتم تمزيق قدره على يد *الياتاغان*؟ لكنها المرة الأولى التي يرون فيها امرأة

تدخن. كانت تدخن أيًا ما تجده.. دخان التبako، أو الحشيش، أو لحاء شجرة، أو العشب حتى.. كانت تدسه في الغليون الخشبي وتنفث الدخان بعيدًا، ثم تستنشق كل الدخان في نفس عميق، مألوفة قلبها ورئيتها بالدخان، ليتخلل كل خلية قبل أن تطلق الأبخرة المخصبة للدخان في سحبات عبر منخاريها.

في البداية، كان الأطفال يخافون منها، لكنها استطاعت أن تنتصر على القرية في أسبوع. بدأت تحكي لهم حكايتها بشكل شديد الجمال؛ الرياح الحمراء الجنوب شرقية انتبعت داخل بطن الأم.. وابتلعت التلال والحقول في طريقها، والتوى النهر وانبعج حول وسطه مثل حزام، مزيحًا جبلًا جانبًا واقتلعه من جذوره، ثم سار عاليًا إلى السماء.. قبض على روح السماء في قبضته وهزها بعنف. جرى أهل القرية ليغطوا أجولة التبن الخاصة بهم حتى لا تطيرها الرياح بعيدًا، وسحبوا بهائمهم إلى داخل حظائرهم حتى يحفظوها من الغرق في المطر وما يرونه!

وقف الابن الأوسط للملك في مدخل الباب، ممتطيًا فرسه الناري.. لم يكن الأطفال متيقظين تمامًا دون أن يقضموا من إبطهم، وسيجرون مسرعين إليها في الصباح لسماح بقية الحكاية*. ابن الملك كان يمشط عرف الفرس، وكانت تقول لهم مستمرة في التدخين: *كم يومًا تحتاج لتمشط عرف حصان؟* سيندهش الأطفال. *لا تتعجلوا الأمر، فابن الملك لم يتعجل، فليديه الكثير من الوقت*. ويغادر الأطفال فقط ليعودوا في اليوم التالي لسماح بقية الحكاية. كانت حكاية واحدة، لكنها استمرت زمنًا طويلًا لترويها، قضت عمرًا بأكمله في سردها. ظهرت في القرية عندما كانت قد تجاوزت الخمسين من عمرها، وماتت على عتبة المائة عام أو أكثر من ذلك قليلًا، وهي لا تزال تُفصل وتُسهب في الحكاية ذاتها، حتى إنها استطاعت أن تحول الحكاية إلى سلاح، كانت سترسل أحدهم لجمع بعض الماء: *أذهب واجلب بعض الماء حتى أستطيع إكمال الحكاية*، أو *حتى يجف العشب إلى تبن، وإلا سيبقى الملك محاصرًا في المستنقع*.

لم يكن الأطفال ساذجين، لكنهم أدركوا أنه إذا لم تستطع فارسو مواصلة سرد الحكايات حتى بعد أن تعيش حياة طويلة ممتدة، فلن يبقى لهم خيار. نفذوا أوامرهم بهدوء، وأثار هذا فارسو أكثر فأكثر. *ووقف ابن الملك هناك، ترقد أمامه ثلاثة طرق، واحد إلى اليمين، وآخر إلى اليسار، والأخير رأسًا إلى الأمام. ذهب للأمام.. سار طويلًا، وربما لمسافة قصيرة، وانتهى به المسار عالقًا في مستنقع*، ثم سقطت في غفوة. *حسنًا؟* وكزها الأطفال، *ماذا حدث بعدها؟* *بعدها؟ دعاه ملك المستنقع لاحتيال، وردد الأمير ليرتاح في حديقة عدن. يمكنكم الذهاب لبيوتكم الآن، الأمير متعب جدًّا، سينام حتى الغد. ائتوني ببعض الجبن، وإلا ربما سمم ملك المستنقع طعام الأمير، وسيموت ذلك الشاب الوسيم بسببكم..*، *يمكننا جلب بعض النبيذ أيضًا، ربما أخذ هذا الحيوان المخيف (الوحش) بعضًا منه وغرق في النوم..*، *إذا تناول الوحش بعض النبيذ وغرق في النوم، فمن سيحكي الحكاية؟ اجلبوا لي بعض الجبن وكفى*.

سيعود الأطفال في اليوم التالي ليكتشفوا أن ابن الملك استيقظ مبكرًا وندم على قراره السابق، وأنه اتخذ الآن الطريق إلى اليمين. سار عبر الطريق و... انتهى به الأمر عالقًا في مستنقع*. *هل هناك مستنقعات في كل مكان يذهب إليه؟* كانوا مرتابين، وتهدت فارسو، *نعم، سواء ذهبت إلى اليمين، أو إلى اليسار، أو لو طرت حتى عاليًا أو هبطت للأسفل، يمكنك الذهاب في أي طريق تريد، في النهاية الحياة عبارة عن مستنقع يبتلعك ويمضغ عظامك قبل أن يهضمك*.

لكن رغم ذلك، كان هناك اختلاف. الوحش في المستنقع جهة اليمين ابتلع الأمير الشاب، بعدها

بدقائق امتطى ابن الملك جواده على الطريق جهة اليسار. *استطاع الهرب من بطن الوحش؟ كيف؟*، لمعت عيون الأطفال بالدهشة والرهبة.

ينعمة من الرب. *لكن هل هذا ممكن؟ ألم يسعل الوحش، ولم يعطس، ولا تتأب.. لم يفتح فمه قط، ولم يتجشأ حتى.. كيف خرج الأمير من بطنه؟*

بربكم أيها الأطفال، صارت فارسو الآن مستثارة بحق من أسئلتهم الجامحة العنيدة، *تمكن الرب من إنقاذ فارسو من قبضة الأتراك، فما صعوبة أن يأمر بشق بطن الوحش وإنقاذ الأمير؟ في نهاية المطاف امتلك الأمير سيفاً نارياً في يده..*.

أي شيء جديد أتى للقرية جاءها من أحد ثلاثة طرق، تماماً مثل الخيارات التي واجهت الأمير في الحكاية؛ طريق مستقيم، وجهة اليمين، وجهة اليسار. حدث ذلك سواء عندما يولد طفل في القرية، أو عندما يذهب هاروت للعالم الخارجي وعاد ليخبر الناس بما رأى، أو من خلال حكايات فارسو. أمد المهاجرون ناخشون بأي ما أمكنهم أن يجدوه؛ لحم، أو فواكه، أو حلوى الجاتا. كانوا يدحرجونه في حجرها ويقولون: *كُلي هذا.. عندما يولد الطفل سمّه باسم ابني، ليكن طفلاً مباركاً..* كانوا يبكون بمرارة عندما ينظرون لبطنها، *ماذا يمكنك أن تقولي، ماذا يمكنك أن تطلبي؟ أوه، يا ربي، امح ذلك من ذاكرتي، ومن ذاكرتك أنت، امحه من ذاكرة العالم.. ليس لهذا النوع من الألم الحق في أن يبقى حتى كذا؟*

أنقذ المهاجرون أفراد عائلاتهم من المذابح فقط، في شكل ذكريات عنهم، ويتواصل بعضهم مع بعض من خلال المرثيات والأحلام.

كانوا يحاولون تنفس الحياة في الموتى بأي ثمن، بأن يمرروا أسماءهم للآخرين، وبمنح الهدايا في أعياد ميلادهم لشخص ما آخر في مثل عمره، وبتوزيع أنصبتهم من الحلوى ملأ الكفوف، حفنة في الكف لكل فرد ميت من العائلة لأقربانهم من الفلاحين في اليوم الاحتفالي للموتى.. عادة ما يبدأ هذا في الظهيرة، تظهر مجموعة من النسوة الحزاني حاداً في الشارع، ويكون لدى التي في المقدمة طبق مليء بالحلوى. أحياناً تتشكل مجموعات مختلفة في كل طرف من الشارع، أو في عدة شوارع بالتزامن. كان السكان المحليون يسيرون باتجاه المقبرة ليشعلوا أعواد البخور عند شواهد قبور ذويهم؛ يرثونهم، ويتواصلون مع أرواحهم. لم يكن للمهاجرين مثل هذا الحظ؛ فأقربهم كانوا بلا مقبرة، وكانوا يلفون شوارع القرية عدة مرات، حتى يفرغ طبقهم من الحلوى تماماً، وتقرغ قلوبهم من الدموع. كانت المرأة التي تسير في المقدمة تفحص حدائق البيوت، والأرصفة، وعمق الأرض المأهولة، وما إن تجد شخصاً ما كانت ترمي حفنة من الحلوى باتجاهه أو باتجاهها، هامسة بصوت غير مسموع: *هذا لأمي.. هذا لأخي.. هذا لابني..*، كن ينطقن بأسماء الموتى في عقلمن حتى يتجنبن إخافة الأطفال، ويمنعن حدوث صراع بين الأحياء والأموات.

في البداية كان الأطفال يرتجفون عند رؤية هذا الموكب، بعدها كان القليل من الأطفال الشجعان يجمعون الحلوى المنثورة على الأرض، أو يلتقطونها من الهواء عند رميها.. ويرفعون هذا الجزء من المتوفين إلى أفواههم بخوف من شيء مرتقب، ويشعرون بالحلاوة عندما يقضمونها، ثم يقفزون لالتقاط حفنة أخرى. في النهاية يصابون بالغثيان من كثرة أكل الحلوى. وبعد أن يغادر الناس تكون الأرض مغطاة بحلويات خشنة، جاتا وحلاوة وسكر النبات كذلك.. ويذهبون تاركين خلفهم تلك الأشياء الحلوة، بينما تبقى الأقدار الأخرى التي تحتاج لأن تحيا وتتهك مصائر الآخرين، وهكذا يكون لحيواتهم معنى. كان الموتى كثيرين، والأحياء قلة، ولم يتمكن الفلاحون من أكل

الحلوى، مهما كانت رغبتهم فيها.. *إذا كان المولود صبيًا، امنحه اسم أبي أو أم أخي.. استهلك الأتراك أرواحهم، وربما عاشت أسماؤهم. كان لـ *بيران* أسلوب آخر في طرح هذا الطلب بالمقارنة مع الآخرين، كانت كلماتها مصحوبة بالكرم. تطبخ شيئًا ما لذيذا كل يوم وتجلب منه الكثير، وتساعد ذلك إلى السرقة عند مدى معين. لم يمر يوم دون شجار بينها وبين زوجها، بل عادة ما حدث أن قلبت السمك الذئبي المملح بهذه الطريقة أو تلك وتخفيه فوق الحجارة أسفل الجدار، وكان هاكو يسأل بغضب: *أين السمك؟* فنقول: *أكلته القطة، ذلك الشيء اللعين.* وكانت بييران تنن مراوغة، ويظل هاكو عنيدًا، *سألتك سؤالًا.. أين السمك؟*
حسنًا، يجب عليك وضعه بعيدًا عن متناول القطة. كان أحد الجيران يقفز من الجانب الآخر من السور ليسيطر على هاكو حتى لا يضرب زوجته، *ولا حتى ثعبان يمكنه الإمساك بقطة سرقت سمكة، هل يمكنه؟ وما هو جيد لقطة ملأت معدتها أكثر من أن تأكل ثانية؟*
كان هاكو يقول مشيرًا إلى بييران: *هذه هي الحية الحقيقية، هذه المرأة سارقة! زوجتي، أين السمك؟*، تنتهد بييران، *القطة أكلته.* وكان يصرخ ويشد تنورة زوجته الواسعة بكسراتها العديدة، *اخلعي ثيابك، أنت خبأت السمك في تنورتك بمكان ما.* كانت تبكي وهي تلملم تنورتها حول نفسها، *القطة أكلته.*

يعلن الجار عن وجوده بالقول: *هاكو أيها الوسيم، يجب على الرجل ألا يتشاجر بخصوص الأكل.* فيهتف صارخًا: *لكن هذه المرأة سارقة*، شاعرًا بالاستياء بوحى داخلي، جاذبًا ثياب زوجته، *في يوم تكون دجاجة مفقودة، وفي يوم تال الزبد، ثم الجبن.. هي تسرق البيت قزمة قزمة بملء فمها.. أقول لك اخلعي ثيابك.. سأجد السمك في ثنانيا تنورتك حاليًا. اللعنة على تنورتك.. هي تخفي كل الأشياء القبيحة!* كانت بييران تصرخ وتبكي بلا حول ولا قوة.
لا يوجد سبيل آخر، سأذهب وأغرق نفسي في بحيرة سيفان. في آخر شجار لهم جاء ملاك واستقر إلى جوار رأسها.. ارتطم سلك سميك يمر خلال رؤوس العديد من الأسماك المزيتة، وارتفع التراب المتصاعد حتى ركبتى هاكو. عنف هاروت: *ها هو سمكك، دع هذه المرأة وشأنها.* حدق هاكو في السمكة البيضاء الكبيرة التي جلبها هاروت، وعيونه باردة يعلوها التراب.
السمك ليس الموضوع، هي سارقة، أتفهم؟ سارقة! همست النساء على الجانب الآخر من السور لبعضهن: *بربك، استطعت امتلاك بعض الأشياء بعد كل هذه الأزمات، لماذا تسرقين الآن؟*
نظر هاروت إلى هاكو متوعدًا، بينما يردد: *هذه ليست سمكتي، سمكتي كانت تزن 2 كجم..*
عار عليك.. كانت جائعة، لا بد أنها أكلتها. تدخلت بييران بتهيدة: *أنا مصممة على ما قلته، القطة أكلتها، هل سمعت ذلك؟* والتقط هاروت السمكة المزيتة المغطاة بتربة الأرض، وأحاط رقبة هاكو بالسلك الذي يمر خلال السمكة *عد للداخل، أنا لا أريد سماع كلمة أخرى منك، أكلتها القطة، مفهوم؟*

احمر وجه هاكو بعدم المصادقية وجرى للداخل غاضبًا، والسلك مع السمك حول رقبتة، وأمسك بميزان ثم خرج مرة أخرى. وتمتم غاضبًا: *القطة.. القطة أكلتها، هل فعلت؟* ثم لاحظ ذيل القطة يبرز من خلف الباب وجرها للخارج، ممسكًا بالقطة المغطاة بشعر خفيف في الهواء. لم تبد القطة دهشة وحاولت أن تحك السمك المعلق حول رقبتة، بينما وضعه في الشبكة وقام بوزنه. *ها أنت* جالبًا الميزان والأوزان بالقرب من هاروت ليرى *اثنين كجم.. ذلك سمكي إذن.. لكن أين القطة؟* وخرج لاعنًا بشراسة.. يموج ذراعيه على جانبيه كما لو كان في حوار مع شخص ما، تكلم

بصوت عالٍ وأقسم. توقف ليزيل حجراً صغيراً علق بحذائه، ثم واصل في ذات الطريق واختلط بعتمة الغسق.

جلست بيران هناك باكية ومحدقة في الفراغ. أرادت القطة المربوطة في السور أن تمضغ في نبات القراص، مدت فمها لكن النبات قرصها، فنخرت وحركت رأسها بعيداً. مدت فمها مرة أخرى لكن النبات لم يستسلم وقرصها ثانية. هز العجل أذنيه ونخر.. هذه المرة مدت فمها أقرب بزاوية جانبية.. راقبت بيران بصبر المعركة بين العجل ونبات القراص والقطة حتى خلا الشارع تماماً، ونساها الناس ونسوا السمكة، وعادوا لواجباتهم المنزلية. مسحت عينيها الدامعة وأنفها بمريلتها، نظرت يساراً ويميئاً لتتأكد من عدم وجود أحد في الجوار. أسرعت إلى نبات القراص ومزقته ورمته به جانباً. أراد العجل الآن تذوق جذور النبات وتشمم في الجذر الرطب المخضب بالتربة. قلبت بيران التربة سريعاً، وأزاحت السمك الملفوف في ورق، ووضعتة حول تنورتها الواسعة واندفعت خارج السور، وحملها يلمع ببريق.

قالت لـ ناخشون: *كلي هذه*، واضعة السمكة على الطاولة، *كلي هذه، حتى يكون مولودك صحيح البدن*.

الأتراك؛ ذلك ما عمد أهل القرية الإشارة به للمهاجرين بعد ولادة التوأم، رغم أن النساء المهاجرات تزوجن من الرجال المحليين وأنجبن أطفالاً، ورغم أن عجائز الرجال الذين أتوا معهن تزوجوا من الأرامل المحليات؛ حيث أقاموا في الجوار فيما لا يزال يسمى حي الأتراك. عندما بلغ التوأم أربعين يوماً، وزعت ناخشون الحلوة والجاتا مع حفنة من السكرين، وبذلك سترى بناتها الحلوة والنعيم فقط في حياتهن. *كم هذا غريب!* تفاجأ الأطفال، هذه هي نفس الحلوة والجاتا التي يمنحوها في اليوم الاحتفالي للموتى*. شرحت لهم الأمهات *لقد عاشوا بين الأعراب، هم لا يرون اختلافاً مميزاً بين الحياة والموت.. كلوا، كلوا الحلوى كلها؛ المعدة لا تميز شيئاً*.

ثبت أن توأم ناخشون ذوات عزم. شخروا لثلاثة أشهر، وأصيبوا بالحمى ولم يأكلوا، وأطلقوا أنيناً في النهار والليل بلا حول.. لكنهم لم يموتوا. مرة أخرى، كانت ساتو هي التي أنقذتهم. ولدوا في الخوف – لم يستطيعوا قول الاختلاف بين الظلام والنور – لم يناموا، أو يلعبوا، أو يرضعوا لبن أمهم مثل غيرهم من الأطفال الرضع. في يومهم الثالث، عندما أدركت ساتو أن قلوبهم قد تنفجر من صراخهم، قررت أن تصب عليهم بعض الشمع، ولم تخبر أمهم بنيته. وعندما جاءت لتحمم التوأم الوليد، خلعت ملابس الطفلين القذرة بهدوء ووضعتها في نحرها وغادرت. أزاحت الملابس في البيت ووضعتها تحت صليب فضي، وقرأت صلاة، ثم حملت إناء به ماء تحت شمعة وصبت الشمع السائل فيه. سقطت القطرات الساخنة في الماء البارد وهسهست، مطيحة باللعنة التي علقت بالأطفال. في اليوم التالي جلبت الملابس التي صلت عليها، وأعادتها بالطريقة نفسها، لتضعها على جسم التوأم، لكنها وجدتهم يصرخون، تماماً مثل اليوم السابق، وأن حلمات ثدي ناخشون كانت نيئة وتشقق، مثل رمان طازج. لم يكن هناك سبيل آخر. *لو كانت المسألة حلماتك فقط، لكنت وضعت

بعض القمح المعجون بالعسل عليها ولتحسنت، لكنها عين الحسود؛ لا بد أن أصب بعض الرصاص عليك*. ضحكت ناخشون غير مصدقة فيما قالتها: *لماذا تصيبني عين الحسود؟ هل أملك أي ثروة يمكنها أن تأخذها مني؟ هل يمكن لأي أحد أن يشعر بالحسد علي؟* قاطعتها ساتو: *لا تقولي أشياء مجنونة، الآخرون يقومون برحلات حج ويزورون سبعة قديسين

يلدوا طفلاً واحداً. وباركك الرب بطفلين، هكذا ببساطة*. *أوه، حقاً؟ هكذا ببساطة؟* فكرت ناخشون في الأمر شاعرة بالإهانة، لكنها قامت من السرير وجلست طائفة، وأتت ساتو بالرُّضع موضوعين في القِماط ووضعتهن بإحكام إلى جوارها، كما لو أنها تخطط للتأكد من أنهم جميعاً متموضعون أسفل الوعاء الفخاري الذي تحمله. غمست أصابعها في الماء البارد ونفضت منه بعض النقاط هنا وهناك.

سألت ناخشون وأملت عليها الجواب: *ما الذي تشمينه؟ قولي، ورود وبنفسج*، رددت ناخشون *ورود وبنفسج*. *ما الذي تريه أمام عينيك؟*. ومرة أخرى أملت عليها جوابها همساً: *جيش ملائكتي الحارسين*. رددت ناخشون طائفة: *جيش ملائكتي الحارسين*. شعرت ساتو بالإثارة، *رائحة الورد والبنفسج في كل مكان، والرب معنا من خلال جيش الملائكة الحارسة*. أعطت ناخشون الإناء وانشغلت. وضعت قطعة من الرصاص في ملعقة فخار، ثم أزالته قطعة من فحم الفرن ووضعته على حرف التونير. ثم أمرتها *لا تقولي كلمة واحدة*، ووضعت الملعقة فوق الفحم المشتعل، وراقبت الدخان يتصاعد، وتلت صلاة حتى ذاب الرصاص. ثم التقطت الملعقة وأخذت الإناء من يد المرأة الأخرى، وحملته فوق رأس ناخشون، وصبت الرصاص الذائب في ماء الإناء. *أوه عزيزتي، أوه عزيزتي.. فوي..* بصقت في خوف بينما نظرت في الإناء، ثم التقطت الرصاص المتجمد بإصبعين ووضعته أمام عيني ناخشون. *هل تريه؟* سألت على نحو غامض، كما لو كانت قطعة الرصاص التي بلا شكل علامة واضحة. غلفت الرصاص بسبعة خيوط ملونة ووضعته في جيبيها، وبعدها أعطت الأم رشفة من الماء لتشرب ونثرت نقطة ماء بعناية على كل من البنيتين. *هذا كل شيء* قالتها بإحساس الرضا عن نفسها، *الآن تخلصنا من اللعنة*. وكانت تحاول إقناع نفسها أولاً، بينما رفعت باقي الماء وصبته تحت شجيرة ثمر الورد.

عندما عادت، تبعها بيران، تحمل بعض الحبوب المحمصّة، وضعت طبق الحبوب المحمصّة الحلوة، والدهن يبرد فوقها، بالقرب من سرير ناخشون وألحت: *كلي هذا، وستجدين لبناً في ثدييك*.

فكرت ناخشون مع نفسها بينما أكلت الحبوب المحمصّة الدافئة، *أتساءل إذا أمكنني اختلاق كذبة لائقة*. التفكير التالي جاء مع وجود بيران حول أسماء طفليتيها، أعطاهما الكل أفضل طعام كتعويض من أجل إحياء أسماء أفراد عائلاتهم. وعندما وضعت البنيتين، عرفت أنها ستسميهن باسم الخالة والعمّة، لكن كيف تمنح لهما اسمين عاشا عشرة أجيال ثم احترقا على يد الأتراك؟ لذلك اختلقت كذبة. *رأيت القديس سارجيس في حلم ليلة أمس. جاء وهمس بأسماء اثنتين من آلهتنا القديمة؛ أستجيك وأنا هيت*. لم توافق بيران مع القديس، *لو كان لدى آلهتنا أي سلطة باقية، لم يكن المسيح ليصبح قادراً على سحب الناس بعيداً عنهم*. كانت متضايقة أن التوأم فتيات، ما عنى أنه لا أحد سيسمى باسم أبيها أو أعمامها. رسمت بيران الصليب على نفسها خائفة *أرُكع أمام تلك القوة المقدسة*.

أشارت ساتو إلى الطفلتين الموضوعتين في القِماط راقدتين إلى جوار بعضهما، *هل هذا ما تستطيعه قدرة المسيح؟*، *هل رأيت؟*. ضربت بيران بيدها على ركبتيها متشجعة بما قالت ساتو للتو، *ساتو هل رأيت ما حدث؟* نظرت إليها بخوف *ماذا حدث؟* *أي شيء آخر يمكن أن يحدث؟ التوأم وُلدوا فتاتين، لم يبق أي أحد ليدعى باسم أبي أو اسم أعمامي*. *ربما عليك أن

تحاولي إنجاب صبي بنفسك* قالتها مازحة وخرجت، وفي طريقها للبيت رمت قطعة من الرصاص والحبل الملون في النهر، قالت للماء الجاري: *خذهم.. خذ الألم والبؤس من تلك المخلوقات البائسة*.

تشجعت بيران بما قالته ساتو، وكانت مقتنعة أنها من ستحيي الاسم الذي فقد في عائلتها؛ لأن لكل شخص هدفاً في الحياة واسماً ليحييه. ووجدت طريقة لفعل ذلك. ذهبت لجمع العشب وعادت حاملاً، وذهبت لحصد الخضروات وعادت حاملاً.. حمل بطنها أربعة صبية في أربع وقائع، وحملوا كلهم اسم *جارنيك*، لكن كل واحد منهم مات في اليوم الثالث أو الرابع من عمره، وعندما حملت آخر مرة، أخذت ما جلبته من الحقول حيث ذهبت لجمع الزعتر، ووضعت مكان زوجة فازجين، التي كانت تتوقع ولادة صبي هي الأخرى في تلك الأيام. وقالت: *رأيت الكثير من الرعب حتى إن دمائي غيرت مكوناتها وتحولت إلى ماء؛ لذلك أطفالي يموتون. ضعي ملابس طفلك على طفلي، وامنحيه لبنك ليشربه*. وعاش الطفل. كان أبكم، رغم أنهم علقوا مفتاحاً مباركاً في الكنيسة على خيط ملون بسبعة ألوان حول عنقه حتى نهاية حياته، أملاً في فك عقدة الكلام لديه.

لأعوام عديدة كان هاروت يأخذ ذلك المفتاح الفضي معه عند خروجه للعالم، زائراً كل الكنائس في طريقه، طالباً من الرهبان أن يباركوا المفتاح بالصلوات قبل أن يعيده لها. لم تعد هناك كنائس لم يزرها في أرمينيا، وذهب بالمفتاح لبعض منها لثلاث أو أربع مرات.. مرتين يومياً عند شروق وغروب الشمس، يلوون المفتاح بالقرب من فمه، كما يفعل المرء عند فتح قفل ما. التوى جزء من المفتاح من الاستخدام، والجزء الآخر منه صار مبريئاً، لكن عقدة لسانه بقيت كما كانت دائماً ولم تتفك قط، ولم يمنح أحد ذلك الاسم لأي من أطفاله لمائة عام تالية في تلك القرية، حتى انقضى قرن بأكمله وتم تخليص الاسم من اللعنة.

لم تكن بيران من النوع الذي يتخلى عن أهدافه، كانت تحمل في أطفال أخرى، وتتفصل عن زوجها وتحوله إلى حفنة من اللحم. عندما عاد هاروت من الجبال بنصف وعي، حاملاً هاتكو على ظهره، اندفع إليه الفلاحون ليساعدوه ومن بينهم بيران، وهي تنتحب لأنها لن تكون قادرة بعد على إقناع زوجها ذي العينين الخضراوين على تجاهل الشائعة، والحسد، والحقد، وأن يصدق أن الطفل من صلبه. تملك المشاعر هاتكو عندما رأى فيضان الدموع التي ذرفت، وأطلق دعاية وهو نصف ميت تقريباً: *لا تبكي يا بيرو، الدب لم يمسه الجزء الذي يخصك، ذلك الجزء بحالته غير

مصاب*. لكن ساتو قضت شهراً غارقة في عرقها لعلاجها، دون تحسن – لم يكن لديه إحساس بجسمه أسفل إبطيه – وفجأة صار أكثر يأساً وبؤساً. كان ينادي عدة مرات في اليوم، *بيرو، أوه بيرو، كم أحبك..* كانت بيرو تسمعه بعصبية، أملة أن الجزء الآخر من الجملة سيكون مختلفاً هذه المرة، وبمجرد أن سمعت: *كم أحبك..*، كانت تضرب على ركبتيها بغضب: *أوه، لقد لوث نفسه مرة أخرى*. كانت تغير له ملابسه وتعود، ناظرة إلى يديها محمرة، والجلد متشقق ومتورم من عملية تنظيفه وحمل أوزان ثقيلة، ترفعهما معترضة على حظها العاثر، *يا إلهي، تمكننا من الهرب من الأتراك بمعجزة، لكن ما الذي جلبته لنا بدلاً من ذلك؟ لا يوجد خيار للهروب، ولا يوجد سبيل للبقاء كذلك.. ماذا يمكنني أن أفعل، أوه، يا إلهي!*

ربط هاروت الثور إلى عربته في تلك الأيام، ثم انطلق إلى إيريفان، محملاً بالعطور التي جمعت من الأشجار، والسلك المملح، وثلاثة قطع من جلود الخرفان المجففة، وفراء ثعلب بالعيون

والمخالب سليمة في مكانها، وقد خطط ليبداله بالسكر وملابس من القطن المطبوع. بمجرد عودته، انطلق إلى ساتو ليتبين حقيقة الأنباء التي بلغته. انتهت ساتو للتو من عجن الخبز، وكانت تقطع الرغيف الطازج، وتلقي بالكسرات في بعض الدهن الأصفر بينما تقلبها على النار، كانت تعده للتناول لشهور. أذابت قطع الخبز الساخن في السمن وشربه، منتقًا مثل وابل من السحب حاملة حبات المطر. قدمت بعضًا منه لهاروت. لحس الدهن الساخن وعلق بأصابعه وهو يأكل، ثم سألتها: *هل حقيقي أنك تعرضت للاغتصاب؟*

نعم، ضربتني المرأة.. سألوني لماذا كنت أرفعهم، ولماذا لم أتركهم ليموتوا؟ لم يتناولوا اللبن والخبز والماء لأيام عديدة، قائلين إنهم يجب أن يموتوا. لماذا علينا أن نطعم الأثران ونرفعهم؟
ماذا قلت؟

ماذا كنت لأقول؟ أنا من أنا، ما الذي يعنيني مما يقوله الآخرون؟
إذًا ساعديهم، اجعلي أولئك الأطفال يقفون على أقدامهم؟ *لكن ماذا لو كانوا على حق؟ ماذا لو كنا مخطئين بخصوص تلك الأطفال، وكيف نشعر بالأسى عليهم ونحبهم؟ هم اليوم أطفال ونشفق عليهم، لكن عندما يكبرون، سيكونون أترًا وسيدبحوننا.* انفجر هاروت: *نعم، أنا دائمًا على خطأ – سواء تكلمنا عن الأطفال أو عندما يأتي الأمر للأعداء، والأصدقاء، والحياة، والموت.. الحالة الوحيدة التي لم أكن مخطئًا فيها قط هي ما يخص الرب، وذلك أكثر من كافٍ ليقيني حيًا.. لذا، اعلمي هذا يا ساتو، إذا حدث أي مكروه لأولئك الأطفال فإن سوطي جاهز للتصرف معك.*
بعدها، انتزع بشكل علني شعرة من ذيل حصانه كل يوم، وجلس في حديقته في نهاية الأسبوع ليغزل الشعر معًا إلى حبل، وكان يحكمه حول وسطه بدلًا من حزام. عندما يرسل رغيفًا من الخبز على عتبة بيت ناخشون قبل أن يمضي. ويأتي هاروت الصغير، ملوحًا بشعر حصان آخر في الهواء، ويطلب منه أن يعلمه كيف يغزل حبلًا. كان يجيبه: *أنت لا تزال صغيرًا جدًا.* *لكن غزل حبل ليس بهذه الصعوبة، لماذا أحتاج للنمو كي أقوم بالأمر.* *الجزء الخاص بغزل الحبل ليس صعبًا، الصعب هو أن تجبر نفسك على الامتناع عن استخدام ما غزلته.* وكان هاروت الصغير المنبوذ يندفع غاضبًا ليستمع لحكاية اليوم. *فارسو، قولي لي الحقيقة، أي حصان أقوى، حصان هاروت أم حصان الأمير؟* تمط فارسو الكلمة بثقة، *لا.. أتمنى أن يغفر لي الأمير قول هذا، حصانه يحتاج لأن يأكل المزيد من التبن ليكون قادرًا على مقاربة حصان هاروت في قوته، هناك هاروت واحد في العالم، تمامًا كما أنه هناك حصان بري واحد.*

استمر هاروت بجلب الخبز لهم لزم طويل متجاهلاً الشائعات والتلميحات، إلى جانب التمتمة الصامتة التي يتمم بها الناس لأنفسهم. تكلم خلال هذا الزمن مع ناخشون مرة واحدة فقط، عندما وضع رغيفًا من الخبز على بابها، على الصخرة التي تلتحقها الحيوانات من أجل الملح، ثم طرق على النافذة بنعومة ليخبرها كي تلتقط الرغيف، وخرجت إلى منزل ساتو لتأخذ جرعة لتليين أمعاء طفلتها. نظر إليها *هل أنت بخير؟*

شكت، متضايقًا من نفسها، وتذرف الدموع من عينيها، لكن دون أن تخبره بكل شيء بدا لها في ذلك البيت مثل نذير بالموت، *لا يمكنني الاعتياد على ذلك.* أصيبت بحمى النفث بعد الولادة، ولم تفارقها الأوهام. ألهمها كل شيء بشعور من الخوف داخلها. بدا لها القمر مثل *ياتاجانZ، يبقربطن السماء، وتتساقط الكآبة من السحب، والظلام يقتحم السماء في العينين، وسارت النجوم عمياء بعضها خلف بعض، وبدا عواء الرياح مثل صرخة إنسان.. سكرات الموت الرطبة للرياح تضرب

ببأس بارد البحيرة من رثيها غير الموجودة على الشاطئ، ويرتعد الرمل المتجمد.. على أساس أن الرياح سواء أتت من الجبال أو من البحيرة، فهي تنتفخ بشكل مختلف، لكن الهواء الآتي لها كان يجلب ذات الشيء، الحداد والنواح.

الشمس.. تلك القطعة الذهبية هجرتها في الساعة التي كانت في أشد الحاجة إليها. في الليل، تصعد الرياح إلى السماء وتضرب ظهرها إلى سقف لا مرئي، محطمة برجها. علمت يقيناً أنها الرياح، لكنها بطريقة ما تذكرت أنه بهذه الطريقة في مثل ذلك اليوم، كان الجنود الأتراك يزلزلون الأرض بركضهم وضحكاتهم.

ارتعدت الأرض تحت وطأة أقدام سارجيس أغا، وبدا كما لو أنه ليسقط مسطحاً على وجهه في أي لحظة وتبتلعه الرمال، لكن حتى الرمال التي تذيب العظام بسخونتها لم تستطع منعه من الحركة. تآرجح وترنح في سيره، كابحاً على نحو ما الرمال المنهارة تحت أقدامه، وتجمدت نظرتة على الفرسان أمامه. وصل أخيراً وحمل الذهب، وأخبرهم بما يريد في المقابل. أخذ أحد الفرسان الذهب، قلبه وفحصه، ثم أوماً بالرضا؛ نعم. في هذه اللحظة ألهمت أفعال سارجيس الشعور بالاحترام له بين المهاجرين. كانت ابنته الكبرى مقتنعة بأن إمكانية شراء موت المرء اكتشاف لأبيها، وقامت بنشره كفيروس، واستخدمه الجميع كسبيل وحيد للهرب من القدر المحتوم. لم يلتصق سارجيس أغا، كرجل حقيقي، العفو أو يذرف الدموع عندما واجه الصفقة مع قطاع الطرق، والذهب، والفتاة التي كانت تحطم الرتب وتطلق الرصاصات. الذهب – الطلقة، الذهب – الطلقة... كان على يقين أن كل أطفاله قتلوا، ونجوا من الألم والعار. ربما فكر طويلاً وبقوة في الأمر، وربما خطر له منذ البداية. هل فكر أو وضع في الاعتبار إذا ما كانت أهمهم ستتجو وتحيا بعد موت أطفالهم، أو إذا كان الأطفال سيتحملون أهمهم.. على أي حال، تصرف كما لو كان يوزع الحلوى – أولاً للصغار، حتى يظلموا أبرياء، لا بد ألا تفقد الحياة قيمتها في عيونهم لهذا الحد، لا بد أن يموتوا بسذاجة. بدأوا بالصغار.. ابنه ذي العام ونصف العام الذي ألبسه ملابس الفتيات. ذهب سارجيس ووقف بقرب سيقان الحصان، ونادى على طفله بحنان. جرى الطفل للأمام عندما سمع أباه.. طلقة واحدة. غطى سارجيس أذنيه وسقط على ركبتيه. لم يكن صوت سقوط الطفل صريعاً ذا أهمية؛ لأنه لم يكن له أثر سوى لرفع الرمل تحت الجثة ونثره فوق أقدام أخته الحية. نظرت الأخت الكبرى تحت على قدميها والرمل الذي كان يلهبهما. هل صرخ أحدهم أو بكى؟ بدا أنهم لم يفعلوا. فقدت الأم وعيها في الساعة الأولى. سقطت فوق الرمال تماماً أمام ابنتها. أظهر الرجل الذي يطلق النار بعض الإنسانية وأطلق عليها النار في نهاية المطاف.. وبينما كانت الصفقة تنفذ، كانت هي الحالة الوحيدة التي أطلق فيها التركي النار أولاً ثم تلقى الذهب بعدها.

بالحكم بناء على أن التركي وسارجيس أغا كانا يتكلمان بعضهما مع بعض دون أن يقسموا، محتمل أنهم عرفوا بعضهم بعضاً، وكان لا يزال يكن للرجل التركي الاحترام. فهو لم يسمح له فقط بدفن الموتى، بل وافق أيضاً على قتل الاثنين الآخرين بعد أن أنهوا دفن الباقين. وعندما اقترب أهل سارجيس منه، استخدم الكلمة نفسها – أغا – ليخاطب الرجل الذي كان متهاكاً ومتضائلاً من التعذيب. كان من واجه قطاع الطرق، وكانت ابنته الكبرى على يقين أنها على صواب، عرفهم أبوها. بالطبع لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً للمساعدة، لكنه وجد أن من الإنسانية أن ينظر للجانب الآخر..

كان سارجيس وابنته الكبرى آخر من تبقى، بدأوا في دفن أفراد عائلتهم. كان الرمل ناعماً، لم

يقاوم، وكان سهلاً حفره رغم سخونته وعدم استقراره، وانزلق في الحال للخلف داخل الحفرة التي حفرت ليملاها ثانية. عندما اقتربوا من الأم وقلبوا جثمانها، أنت ولم تكن ميتة تمامًا. تكلمت معها الابنة دون استجابة، ولا حتى تنهيدة خافتة. وتساءلت الابنة: هل سمعت صوت الطلقات؟ لا بد أنها شعرت بالأرض ترتج مع سقوط كل طفل من أطفالها، كانت الرمال غير مستقرة، تمر جزيئات من الهواء بين حبيباتها، وأمكن للهواء نقل الذبذبات عبر الأرض.. دهشت الابنة من عناد أمها، ما الذي أبقاها حية بعد رؤية موت أطفالها، لماذا تشبنت بالحياة ورفضت أن تموت؟

عندما استخرج سارجيس بأصابعه المرتعشة الرصاصية من صدر زوجته الحية، حتى تستطيع النزف بحرية وتموت، متيحاً لهم أن يدفنها قبل التحرك، تدفق الدم الأسود القاتم من صدرها الأبيض.. ضحك أحد الأتراك وقال بابتسامة: *الرجل العجوز يجمع مزيداً من الذهب*. ألهوهم بالسياط؛ أسرعوا، أنها الأمر.. لا ضرورة لأن تحفروا حفراً عميقة.. نحن لن نقف حولكم وننتظر كثيراً.. لكن الزوجة لم تكن لئمت رغم ما فقدته من دماء غزيرة. أجبروا سارجيس أفا أن يعطيهم مزيداً من الذهب؛ وبهذا كلف موت زوجته قطعتين من الذهب. أطلقت الابنة صرخات رعب عند رؤيتها النظرات في عيون قطاع الطرق، وللحظة فكرت في خطف الذهب من يد أبيها، الذي كان مفترضاً أن يشتري موتها في نهاية المطاف، لكن التركي أمسك به بالفعل وعض فيه ليتأكد إن كان غير مزيف.

حملت الابنة ضغينة تجاه أمها دامت للأبد.. لماذا سرقت نصيبي من الطلقات؟ منحتها الحياة، لم تتمسك أو تبق على شيء لنفسها؛ صحة، أو ذكاء، أو جمالاً.. لم تحتفظ بأي شيء، ومنحت كل شيء لابنتها، لكن الآن، وقبل أن تموت، أظهرت بعض الجشع، متشبثة بنصيبتها من الطلقات ولم تتح لموتها لها الموت الذي كان مقدرًا لها.

فيما بعد عبر الأتراك عن دهشتهم من تمكن الأرمن العجائز إخفاء ثلاث قطع من الذهب في متاعهم. كانوا يكفون الجميع، وافتقد لقطعتين من الذهب؛ واحدة له وواحدة لابنته.. *أخرجوهم* صرخت المجموعة التالية من الأتراك بغضب في خيولهم التي داست سارجيس وسحبوا ابنته الكبرى بطريقة وبأخرى. *أثوا بكل الذهب*. أقصى سارجيس إحساسه بالعار، وكان يبكي ويفرك وجهه في الرمل الساخن. *يمكنكم رؤية أنني عار تمامًا، ليس لدي أي ذهب..* *أخلعوه..* هتفوا: *أنتم أرمن، لا يتجول أرمني في الجوار بدون ذهب، لا بد أنك خبأته في مكان ما.. هناك كل الأماكن التي يمكنك أن تخفي فيه الذهب في جسدك. فكر ثانية أرمني عار لا بد أنه يمتلك ثلاث حفنات من الذهب على الأقل بحجم كف اليد مخفي في مكان ما..*، وواصلوا ضربه.

لم تكن لدى ناخشون فكرة عن ما أظهره وجهها عندما قالت: *لا أستطيع الاعتياد على ذلك*؛ لأن هاروت كانت له النصيحة التالية: *انسي الأمر.. انسي الأمر برمته، لا تعذبي نفسك أو أطفالك المساكين.. سيجف ثديك من اللبن*.

*يمكن للألم أن يكون مميئاً وأبدياً كذلك، الألم الذي تعايشت معه أبدي، هل تفهم؟ أبدي! *توخزها الذكريات في داخلها مثل فلقات في جذع رطب، ورأسها ينسحق.. وابتلعت الدموع التي ملأت فمها.. كانت دموعاً مالحة قليلاً مثل الدم. *سأموت، لا يمكنني تحمل الألم بعد الآن، أفضل أن أموت*، أرادت أن تتكلم بين ذراعيه وتبكي من قلبها لكنها قاومت.

ليس لدينا ما نقوله في هذا.. بحث عن الكلمات المناسبة ليواسيها، *نحن ببساطة مجرد مراسيل.. خنازير حاملة للألوانع، عليك أن تمتلكي شيئاً ما لتجلبيه معك إذا أردت أن تولدي، وعليك أن يكون

لديك شيء ما لتأخذه معك إذا أردت أن تموتي. لكنك حتى لم تعيشي بشكل صحيح بعد. إذا كان الرب قد حماك حتى الآن..*، لم يستطع أن يتغلب على مشاعره، كما لو أنه لم يرغب في الكلام دفاعاً عن الرب، عارفاً في أعماق روحه أنها تعاملت مع أقسى أشكال الموت.. نظر للدموع الجارية أسفل وجه المرأة، وتذكر النظرة الخشبية الفارغة المحدقة التي رآها في عينيها عندما ظهرت عند البحيرة في اليوم الأول لها. سبب له هذا سروراً، فكر مع نفسه، *عادت لها الحياة، ألمها يثق الآن في الدموع، والدموع تثق في العالم الذي تترقق فيه*. كانت ركبته تؤلمه ألماً فظيماً، كانت تقتله، خاصة في الليل – في الفراغ المحيط، كان الألم يعوي إلى قلبه مثل عواء ذئب أمريكي، كان الألم يفسد نومه، وكان يجلس تحت شجرة الكمثرى وينظر للعالم حوله – أمامه يرقد ما كان سابقاً منزل بيرش، الذي تم منحه لبعض المهاجرين.

كان أوينز يخرج أحياناً، مُعذباً بالأرق، ويتكلف الابتسام عند رؤية هاروت. *كيف أنك لست نائماً؟*، *ساقى.. تلك اللعينة تقتلني، لا عجب أنهم يقولون إن روحك تنتهي عندما يتألم جسدك*. يسأله أوينز: *نظراً لأنني أعاني من البواسير، أين روحي إذن؟*

في إحدى تلك الليالي عندما لم يكن هناك أي شيء -لا أوينز، ولا كلاب تعوي، ولا صقور تطير صاحبة – فتح باب ناخشون فجأة وخطت للخارج. تملك الغضب من هاروت في عقله، *لقد ولدت للتو، إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟ لا يجب أن تكوني بالخارج تحت أشعة القمر..*، لكنه بعدها أدرك أنه وقت الليل ومفترض أن الجميع نائمين. لم يكن لديها مكان لتذهب إليه في تلك الساعة، وهكذا جر قدمه المؤلمة وقلبه يملؤه الشك وتتبعها. عرفت ناخشون مكان بئر القرية، وسارت بحرص عبر الحدائق والشوارع حيث لا توجد كلاب. كانت تقف أحياناً، واضعة يدها على قلبها لتلتقط أنفاسها وتتنظر نظرة خاطفة خلفها لتتحص الطريق.. غادرت القرية. تملك الغضب من هاروت *لا بد أنها ضائعة.. هذا الحيوان الضال!*

، تحسس جانب وسطه، كانت سكينه هناك، سيفتله لا شك.

اصطنع مثل طفل - مجموعة أصوات متقطعة: *آه، آه، آه..* صفق بيديه على فمه بإيقاع، أنت الريح بأنين سارجيس لأذنيه ممزقة إياه إلى سلسلة من الأصوات القصيرة. أدرك فجأة أن النداء كان أتياً من جهة أخرى، ليس الاتجاه الذي تقدموا فيه. جعله ذلك سعيداً. لكن هل كانت ناخشون رغم ذلك تسير باتجاه الجبال. هل تنوي أن ترمي بنفسها من فوق الجرف؟ إذا كانت نجت من المذابح ولم تُسلب حياتها، لماذا تفعل ذلك الآن؟ حاول تهدئة نفسه.

توقفت على مسافة قريبة بعد حقول القمح واستدارت لترى إذا كان هناك أحد. انحنت فوق صخرة ويدها على صدرها تلتقط أنفاسها. استراحت قليلاً، ثم أزاحت غطاء رأسها وربطته حول وجهها، بالطريقة التي يعالج بها المرء فكاً مكسوراً ليمنع حركته. ثم انحنت للأسفل وبدأت في الحفر. واصلت الحفر لوقت طويل، وفعلت ذلك بحركات سريعة تتوقف أثناءها لتتنظر للقمر. عطست من الغبار الذي ملأ رئتيها عدة مرات، ونظرت حولها بخوف في كل مرة، ظناً منها أن الجميع سمعها. حفرت وتحصت جوانب الحفرة، غير سعيدة بخصوص شيء ما. وسعت الحفرة قليلاً في الجانب الأيسر وقفزت فيها، ورقدت في قاعها. رسمت علامة الصليب على صدرها وأغلقت عينيها. بقيت هكذا لبرهة. كان مرعوباً، *هل هي ميتة؟* عندها جلست في الحفرة وسحبت بعضاً من التربة على ساقبيها، ثم رقدت مرة أخرى. فكت يدها المصلوبة ووضعتهما إلى جانبيها، ثم تلت صلاة السيد المسيح بصوت عالٍ. ثم خرجت من الحفرة، واستخدمت يديها وساقبيها لتعيد التراب داخل الحفرة.

شكلت تلاً مثل الذي يشكله المرء لمقبرة. سارت حول هذا التل مرة أخرى، ربما كانت تحاول تحديد أي جانب سيتسع للرأس وأي جانب للقدمين. عقدت عزمها وأخرجت صليباً خشبياً صغيراً من جيبتها وثبتته في الركن العلوي من التل، بتلك الكلمات المحروقة عليه باستخدام الفحم؛ أمي، نونيك. وأخرجت بعض الخشب المضرم من تنورتها الواسعة ووضعت أمام الصليب، واستخدمت يداً واحدة لتحمي الخشب من الريح، وأشعلته. عندما خمدت النار، وضعت بعض المقادير من العطر على البقايا المكسورة. *هذه مني.. وهذه على شرف أختي.. وهذه لأخي.. وهذه لأبي..*، هزت قطعة الورق التي حوت العطر ثم أسقطت الورقة في النار. سحبت نفساً عميقاً، وبدأت في البكاء عالياً، *هذه لأونت أنوش.. أختي بالتبني فارديك.. أغا.. عمي فاجيناك..*، ظلت تذكر الأسماء بين تلك التتهيدات التي لم يبق لها أي قدر من العطر لتنتثره. أمسكت برأسها وهي تبكي لنصف ساعة، ثم وقفت فجأة، تنشقت بقوة ومسحت عينيها بطرف شالها، وعادت.

في اليومين التاليين، تحسنت حالة ساق هاروت، استخدم بعض دهن الدب وساعده ذلك إلى حد بعيد، نفذ منه الدهن في اليوم الرابع ووجد نفسه جالساً مرة أخرى في حديقة بيته، يئن بينما وضع ساقه مرفوعة على شجرة سقطت عليها الإضاءة. بعدها عندما رأى ناخشون تغادر منزلها في الليل، ألمته ساقه ومنعته من أن يتبعها، لكنه عرف إلى أين كانت ذاهبة. شعر بالأسى عليها، *ما زالت شابة ورغم ذلك تدفن نفسها كل ليلة، أي مصير قاسٍ عليها أن تواجهه..*.

كان التوأم عمره ثلاث سنوات عندما قامت عاصفة ذات يوم، كانت عاصفة قصيرة بلا أهمية، امتدت عبر السماء مثل عصب مشدود، وانتهت على غير توقع، تهسهس عند الأطراف، ثم تلاشت. سمع الناس صوت اقتراب الرياح ثم رأوا الغبار يتطاير فوق سقف بيت ناخشون في اللحظة التالية.. جرت ناخشون للخارج إلى الحديقة لتجلب الأطفال للداخل، ورات آناهيت لا تزال تأكل من كوب خثارة اللبن، فقدت ملعقتها في العشب في مكان ما، وأمسكت ثعباناً بدلاً منها، وقد دس وجهه في الكوب، ويلحس فيه قبل أن يبخره ثانية ليلحسه مرة أخرى. بدا أن الحيوان الزاحف يعرف أنه يتعامل مع طفل بريء. كتمت أنفاسها ولم تبد أي إشارة على الحياة، منتظرة بصبر. عندما صرخت جرت جارتها نيكتر للخارج، وهي تفرك يديها المبتلة على بطنها قبل أن تنتبه برعب للطفلة جالسة على العشب تلعق خثار اللبن من وجه الثعبان بسعادة، كما لو كانت تستمتع بمصاصة مثلاً. *هي تركية في نهاية المطاف، تركية!* فكرت في الأمر والخوف يمزقها. حتى ثعبان ما كان ليتودد لأحد*. لكنها بعدها حاولت تهدئة ناخشون، *لا تقلقي، الثعابين مخلوقات حكيمة، ولن تهاجم طفلاً*. أمسكت ناخشون بالطفلة ورفعتها، وأمسكت بالثعبان المغطى بخثار اللبن من يدها ورمته بعيداً. ثم قالت: *ليس الثعبان ما أخافني.. أين أستجيك؟ كانت معها، كانا معاً.. أين ذهبت؟ ماذا حدث لها؟*، وجرت هنا وهناك في حيرة، غير متأكدة مما يجب عليها أن تفعله، والتصقت الطفلة بصدرها.

فكرت الجارة مع نفسها: *أتساءل إذا كانت تحب أطفالها*، وعادت للداخل لتيقظ زوجها، الذي بقي معظم ساعات الليل عند التونير، وانتهى به الأمر غارقاً في النوم. *أسرع* أمرت زوجها الشكاه *فاجو، أسرع إلى هاروت، وقل له أن الرياح عصفت بإحدى البنيتين بعيداً..*.

كان فاجو مرتدياً فردياً واحدة من حذائه، ارتدى الفردي الأخرى وجرى خارجاً من المنزل، وفي عقله النعسان من نوم مؤرق، كان منطلقاً عبر الحقول على ظهر الحصان الوحشي.. جرى ليطلب من هاروت حصانه الذي – مثل أولئك الذين يتذكرون الحكاية ويضحكون – التقطه في يوم شتوي

عندما غادر القرية على أقدامه ثم عاد على ظهر حصان. وكان قد حشر ساتو وكلتا يديها وقدميها في جوال مصنوع من جلد بقري مملح وأخذها معه، ثم عاد عند الفجر وحده على ظهر الحصان، بادلها بالفرس.

هل المرضى في قرينتنا يشجبون فلا يموتون من الآن فصاعدًا هنا؟ هكذا تذمر أهل القرية. قال هاروت: *لا تخافوا، لقد أعرتها لأسبوع، كان هناك طفل في إحدى القرى في السهل يحتضر من حمى النكاف، شعرت بالأسى عليه.* همس *سهاك* بعد فحص الحصان: *حسنًا، حسنًا.. هل تساوي ساتو مثل هذا الثمن؟*، ضحك هاروت ولم يخبره أنه كان مفترضًا أن يعطيهم حملين بالإضافة لها. عندما اندفع فاجيناك إلى الحديقة كان هاروت يسرح حصانه. *أخي* أسرع منتقًا أنفاسه، وطلبه الذي أعلنه للتو. *أخي، لقد أتى من الجانب الشمالي، واستدار حول قمة الجبل، ثم اندفع إلى الوادي..*، *فاجو، ماذا جرى؟*.

هذا ما أحاول إخبارك به، أنت الرياح من الجانب الشمالي، واستدارت حول قمة الجبل، واندفعت للوادي.. لو صادفت حيوانًا لخنفته بالتأكيد.. التقطت العاصفة الغبار من الوادي وحولت بؤرتها الكسولة إلى قرينتنا...

نقد صبر هاروت *فاجو*. ابتلع فاجو لعابه خوفًا، ونظر إلى لبدة الحصان المصرفة وبدأ ثانية، محاولًا أن يكون مقتنعًا. *استمع إليّ يا أخي، هكذا، عندما جاءت الرياح من الجانب الشمالي، والتقت حول قمة الجبل ثم هبطت إلى داخل القرية.. والتقطت الغبار منه، لا يمكنني أن أكون واثقًا حقًا إذا ما نظرت إلى قرينتنا بعينها الكسولة أو عين أخرى.. اندفعت فوق قرينتنا حاملة الغبار، كاسحة صخورنا وشجيرتنا في وسطها، شاقة مسارًا لنفسها بينما دخلت صوب الميدان، ثم استنشقت بقوة..*، دار هاروت حوله بغضب وواصل إحكام السرج، ولم يعد يسمع له، منحنيًا أسفل بطن الحصان مُحكمًا الأبريم حوله. *فقدت ناخشون إحدى بنتيها التوأم*، أخيرًا دفع بالعاصفة بهدوء وتكلم بوضوح، شاعرًا بازدرائه لحكايته. هتف هاروت قلًا: *ماذا؟ أيهما؟* أجابه: *الفتاة التي تسرق البيض من أعشاش الطير وتأكله.. عصفت بها الرياح بعيدًا.. رأسًا من حديقتهم، كانت مع أختها ثم تلاشت... أعطني الحصان، أقول لك، سأذهب للبحث عنها في الوادي، اجمع أنت أهل القرية وأعطهم أوامرك للبحث عنها.. أمل ألا يكون قد قتلها أحد*. نظر له هاروت برعب *لماذا يمكن لأي أحد أن يقتل شخصًا بريئًا؟ مجرد طفل، عندها.. سأل دون أن يلتفت جوله، ويدها لا تزال تلامس ظهر الحصان، كما لو كان خائفًا إذا التفت ونظر له في عينيه سيعديه بنفس الخوف ونفس الشكوك. تتم فاجرو وقال: *لا أدري، نحن نتحدث عن الأتراك هنا، ليس عن طفل*.

تجمد هاروت للحظة، ثم أمسك بخناقه ورفع من على الأرض صارخًا، *أولئك أطفال ناخشون، وناخشون أرمينية، أرمينية! أرمينية!* غمغم فاجو وهو لا يدري ماذا يقول، *هاروت، لم أقصد ذلك.. عنيت أن أهل القرية ربما نظروا إليها بهذه الطريقة*، *فاجو!* سمع صوت نيكثار في تلك اللحظة، *لقد وجدوها* ظهرت المرأة والطفلة بين ذراعيها، وهي تمضغ بعض علكة الشجر، ترك هاروت ياقة فاجو.

اللجنة عليك.. زفر فاجيناك بارتياح ما أن رأى الطفلة، *هل كنت تلعبين معنا لعبة؟ أين كنت؟* قالت المرأة الأقرب له: *زحفت حتى بيت الكلب ثم غفت هناك*، *واحدة تخنق الثعابين، وهذه تزحف لبيت الكلب.. الحيوانات المسكينة تعاني كثيرًا على يديهم!* قال فاجو مازحًا: *أبعديهم عن أولئك الأطفال*، اقتربت نيكثار، *بسبب هذا الشيء الشقي..* هزت الطفلة تلاعبها وعضت خدها

الناعم، *ذهبت ناخشون للجحيم وعادت.. وأخذتنا معها!* مدت الطفلة يديها باتجاه هاروت، التقطها باسمًا، وسألها: *أين كنت أيتها البنت اللعوب؟ هل حملتك الرياح بعيدًا؟ هل تهت؟* وقرص أنفها مداعبًا ووبخ ناخشون في عقله: *لماذا عليك أن تكوني صادقة للغاية؟ كان يمكنك الكذب والقول أن الأثر اك قتلوا زوجك بعد أن حملت بطفله.. الملايين من الأرمن ذبحوا، والأيتام، الذين أرادوا أن يتحسسوا نسبهم بأطفالهم؟*، رأى نساء في إيتشمياذرين بجروح نازفة على صدورهن وخدودهن.. فتيات جميلات حككن الحجارة والرمال على وجوههن، وجرحن أنفسهن محاولات اختلاق مظهر الجذام، حتى لا يمسهن أحد.. لكن ناخشون لم تمارس حتى هذه الخدعة البسيطة، وتعاني الآن بسبب سذاجتها.

رفع الطفلة لأعلى ليلتقطها بين ذراعيه، لكنه لم ينس الرعب في صوت فاجو وهو يقترح حشد أهل القرية للبحث عنها. قرر من ساعتها أن يبدأ بعمل جولات مرتين أو ثلاثة كل يوم، قبل وبعد حلول الظلام؛ ليلقي نظرة على منزلهم ويتأكد أن لا أحد يضايقهم.

ذلك ما يُسمى حبًا..، ذلك ما أدركته نساء القرية بينما اتخذن طريقهن لجمع الماء.

كانت ناخشون جالسة على حزمة من العشب، تضع ما تحيكه على ركبتيها، لكن أحيانًا ما تنزلق نظرتها بعيدًا عن مهمتها لتلقي نظرة سريعة على البنات يتهايمن بعضهن مع بعض تحت الملاءة، مختلقة نوعًا من الرعب بقولها: *أوه، عزيزتي، يا لها من عاصفة قوية! اذهبن للنوم، أو ستحملك الرياح بعيدًا!* كانت الفتاتان تضحكان على ذعر أمهما. عرفوا أن كل ما يخصهم كان يبالغ فيه كثيرًا، تمامًا مثل أن الجبال ليست سوى صخور مبالغ فيها آتية من الأعلى، حتى إنها ربما كانت جذور السماء أيضًا، تشعر بالهواء حولها أثناء هبوطها، وأخيرًا وصلت للاستقرار على الأرض. كان ما يدعونه عاصفة في تلك الأنحاء مجرد رياح قوية، ويشيرون لبحيرتهم كما يشيرون للبحر. قالت الفتاتان مقلدين أمهما: *أوه، عزيزتي..*

غرزت ناخشون النسق بإبرتها، واستخدمت العراف لتثبت الغزل الملون، وواصلت الخياطة. كان الغزل كرة في البداية، تحول إلى ورقة، ثم إلى وردة.. جرحت أصبعًا لها من الشعور بالتعب، وسحّ الدم على القماش الأبيض، *أوه، لا..* استاءت مما فعلت. قالت آنا هيت مواسية أمها: *لا تستائي، لا أحد ينوي شراء ذلك منك على أي حال.* نخرت ناخشون: *هم، هل تظنين أنهم يستطيعون الحصول على أي شيء أجمل؟*، *يقولون أن فراش العرائس الجدد يجب أن تصنعه امرأة لها زوج.. لسوء الحظ يقولون، يمكننا تجاوز ما يقولون..*، صرخت في البنات، ملقية بالخيط على حزمة العشب غضبًا وهي تخطو للخارج، *اذهبن للنوم!*

كان هناك ريح قوية، واهتزت ذؤابة حمراء للنور فوق الجبال البعيدة، كانت السحب التي تتحدى قمم الجبال ستنفجر بقطرات ثلجية حارقة من المطر إذا ما تقدمت خطوة أخرى. عقدت عزمها، حيث إنها لم تبدأ بعد بالمطر، وحيث إن الريح التي تلوي نفسها بداخلها تقعع الصخور في باطنها، هادمة كل أصوات العالم معًا، ومحطمة السقوف؛ كان هذا هو الوقت المناسب، ستذهب إلى هاروت مرة أخرى. بالطبع هي لم تنس الشائعة، لكنها ليست عائقًا ولم تعد أخبارًا جديدة، لطالما كانت الشائعات موجودة، خاصة عندما ذهبت له قبل انطلاقه للعالم الأوسع وتحدثت معه لساعات عن أقاربها، وأصدقائها، وجيرانها، واصفة إياهم بالتفصيل حتى يمكنه التعرف عليهم إذا ما رآهم في أي مكان. عندما عاد، كانت أول شخص يراه عندما سارت للأعلى لتقابله في منتصف الطريق، على أمل أن تحظى بأنباء ما. *أي أحد آخر كان ليفقد عقله عند هذا المنعطف في حياته، لكنها

تلعب الأعياب الحب*.

لم تكن نساء القرية أي رحمة تجاهها. تفسر ساتو الأمر: *هي ليست مثلهن، ذلك هو سبب معاملتهم لها بهذه الطريقة.. ضع دجاجة بين زمرة من البط وشاهد ما سيجري، سينفرونها حتى الموت. وكذلك.. هي انغلقت على نفسها تمامًا، ولا تتكلم مع أي أحد، ولا تذهب لزيارة أحدهم، ولا تستضيف الأخرى. تلك المرأة أخفت نفسها عن الرب، فهي لم تغادر بيتها قط. يا ربي، ألا تشعر بالسأم؟ ألا تفتقد نور الشمس؟* أدهشها هاروت كذلك. *حسنًا*، كان يفكر فيها، *هي تحيك، وتطرز، إذن لديها ما تقوم به، لكن لهذا الحد؟*؛ لذلك قرر التأكد بنفسه، تسلل دون أن يلحظه أحد ذات يوم، وراها محنية على تطريزها ثانية. كان غاضبًا عليها، *هوني على نفسك، ستضرين عينيك، لا تقعلي هذا أكثر من ذلك، سأعطيك كل المال الذي تحتاجين إليه*.

شرحت له ناخشون: *هذا ليس من أجل المال، وضعت لنفسي هدفًا*. نظر إلى حجرها، ثوب أبيض جميل مع تتورة متموجة، مطرز عليها طائر صغير ووردة، لم يكتمل السحاب والسماء بعد في الرسمة، وما زال الخيط عالقًا في الإبرة. لم يدر ماذا يقول. تتمم: *إنه جميل*، قالت باعتزاز وهي تفتح له: *أنا أحبه أيضًا، ولا يمكنني أن أخفيه عنك، كما لا يمكنني أن أخفيه عن الرب.. لم أملك برقعًا للزفاف قط أو ثوبًا أبيض، لكن.. سأرقص، سأرقص عندما تتزوج بناتي، وقتها سأكون قد انتهيت من هذا الثوب، سأرتديه وأرقص، لا يعنيني ما يقوله أي أحد، سأرقص!*

على أي حال، شعرت أن هاروت عرف عنها كل شيء، كان داعمها وحاميها الوحيد، ولا معنى لإخفاء أي شيء عنه، خصوصًا أنها لن تكون قادرة على القيام بما خططت له بدونه. انزلقت الرياح أعلى العمود الفقري للجبال، في الظلام اللامع ليلية خريفية، خادشة السماء بصرخة مخنوقة، معلقة نفسها من السحب الممزقة منقوبة لأسفل، متوسلة الأصوات والغبار حيث سقطت، ضاغطة على الصخور تخدش فيها وفي الشجيرات بأصابع لا أظافر لها، ممسكة بذيلها في فمها بينما تدحرجت بوحشية حوله، تجلد بشدة وتترلق.. وتترلق... كما لو كانت كائنًا حيًا مسلوخ الجلد، تمزقه الرياح إربًا.

وضعت يدها على صدرها، لتحمي نفسها من الريح التي تخترق العظام، حتى لا تخرقها وتأخذ كل ما تملكه للداخل، وركلت الباب بقدمها لتقتحه.

توقف هاروت عند الباب، استخدم يده ليحمي رأسه، واليد الأخرى ليغطي وسطه، تردد وظل واقفًا هناك لبرهة. ومض الضوء المرتعش للمصباح خلال شق في الباب الخشبي، هل عليه أن يطرق الباب أم يدخل دون طرق؟

ماذا قررت؟ جفل عند سماع صوتها المفاجئ. *أنت لا تمنحيني سلامًا، ما الذي سيظنه الناس برؤيتك هكذا.. في منتصف الليل، مرتدية طبقة واحدة من الملابس*.

نظر إلى جسمها المرهف الأملس، وكتفاها ملتقان داخل ذراعيها بسبب البرد وخوفها، والجلد الشفاف ليديها اللتين تلمع أوردتها الخضراء خلالهما، قالت: *إنها خدعة أننا نولد عراة.. لقد ولدنا مرتدين جلودنا مثل طبقة من الملابس. لقد ادخرت بعض المال، يجب أن يكون كافيًا..*، تدفق الأسى من عيني ناخشون. فهم الآن فقط لماذا كانت تجلب له دائمًا بعضًا من مشغولاتها اليدوية ليبيعه عند سفره للتجارة. تتمم كما لو كانت لتبرر ما قالت: *أرجوك اطلب ذهبًا مقابل بضاعتي، إذا أمكنك.. فقد وضعت لنفسي هدفًا*.

لم يقل لها هاروت أن تلك الأشياء كانت فطبيعة في العالم الخارجي، مع الكثير من الموت،

والجوع، والدماء هناك، من ذا الذي يفكر في شراء رباط حذاء؟ سيقوم بإهداء مشغولاتها للناس من معارفه، ويعطيها بعض المال البسيط الذي يحصله من بيع السمك المملح، مدعيًا أنه ثمن مشغولاتها. اعتقد أنها كانت تدخر المال مهراً لابنتها. شعر بمزيد من الأسى عليها، مفكرًا في أنها تخلت عن فكرة الحياة وحرمت نفسها منها، لتضيع وجودها ببساطة على مثل هذه الأشياء، وفكر للحظة في أنه لو أمكنه توفير ماله لكانت قد ظلت على حالها.

قالت بعناد: *ما الفارق الذي يصنعه ذلك معك؟ نحن جميعًا نفعلها في السر، يمكنني أن أكون معك إذا أردت، سننتهي من الأمر في عدة أيام ثم نعود، ستقول للجميع أننا سنذهب للعالم الخارجي للتجارة*.

ذلك كل ما أحتاج إليه.. أنا وأنت.. إنهم يطلقون الشائعات حولنا أصلًا طول الوقت. نظر خارج النافذة على كلب وهو يتكلم – نائمًا ورأسه على كفوفه – ليمنع نفسه من خيانة ما شعر به حقًا. ثم نظر لها بلا حول مفكرًا في إذا ما كان عليه أن يقترح عليها الجلوس، أو أن هذا لن يكون من الأدب. شعر بحلاوة كثيفة من روائح تغلي وتحرق في حلقه من الداخل..

وقفت ناخشون هناك، دون ابتسام مثل المسيح، حريصة أن تتجنب ترك الحياة تقترب منها مرة أخرى. *لو علمت السماء فقط ما الذي سمحت به أن يحدث..*، فكر في حالها متأملًا. تقدم منها وأمسك يديها، فرك أصابعه الباردة في كفه للحظة، البرودة نفسها ستكون على ظهرها الآن، وعلى كتفيها.. لكن عندما أدرك فجأة أنها ربما فكرت أن هذه هي الطريقة التي أراد بها أن تسدد دينها له شعر بالعار، أطلق يديها تاركًا دفء يديه على أصابعها الباردة.

قال مترددًا: *حاولي أن تفهمي، قرية مليئة بنساء لا أزواج لهن ووحيات يشعرن بالغيرة تجاهك، ويحاولن النيل منك..*. قالت: *إذا رفضتني هذه المرة أيضًا سأغادر قريتك، سأخذ أطفالنا وأهرب، سأذهب إلى العالم الخارجي*. لم يصدقها، وتظاهر بالابتسام بريبة، *هذا فصل تكون الذئاب فيه جائعة*. كونها مرت عبر صحراوات تأكل البشر، مليئة بقطاع الطرق الأتراك، علمت الآن أن الحياة ساحة حرب، حيث حتى الرب تمت هزيمته، وإعادة إحيائه لم يكن سوى هرب تم منحه لنا بجمال، لكن رغم ذلك- على الحياة أن تخلق محاولة أخيرة، عليها أن تقوز. سلطت نظرتها المحدقة المبللة بالدمع العنيد عليه، كشخص على صراط الموت سينظر للسماء لآخر مرة، وقالت بثقة: *سأغادر*.

عندما أخرج الثور من الإسطبل قالت: *اعلم أنك مثل عائلة لي*، ودست المال في كفه، وملست بحنان على ظهر الثور، *امنحهم أيًا كان ما يطلبون، لا تفكر كثيرًا إن كان غاليًا جدًا أو رخيصًا جدًا*.

وهي سائرة خلف الثور، أدرك عندها فقط لم كرهتها نساء القرية، لديهن جميعًا أسباب مختلفة ليعشن الحياة، وليس لديهن شيء مشترك معها. هي لم تدرك أن الحياة نعمة، وأن المرء يمكنه حصد المتعة من عيشها. في خيالها، كانت الحياة سلسلة من الحرمان والإهانات، وعلى المرء أن يخرج منها بأكبر قدر ممكن من الكرامة. ربما كان هذا ما أملته عليها سمعة أبيها الثري، ربما ستنذهب في غربة إلى حديقة الكنيسة وتخطو خارجة دون النظر حولها، ثم تذهب للداخل لتغني وعيناها مثبتة على صورة العذراء المقدسة وتعود للبيت. من الصعب تخيلها تجري بحرية في الجبال والوديان في شبابها، وأصوات ضحكاتها يغرق بعضها بعضًا، مثلما فعلت فتاة ساتو، رغم أنها كانت مخفية تحت الصخرة الملحية عندما أخذها ليردها لأبيها؛ لأن الرجل صار منتهي

الصلاحية، وأمكن للفتاة الآن أن تعد له الطعام.. وتعلمت بعض الأشياء من هاروت. تذكر ابنة ساتو، ما جعله يضحك راضياً عن نفسه. ضحك دون أن يعير شيئاً من الماضي اهتماماً. علق الجبل فوقه، وعلقت السحب فوق الجبال، وعلقت السماء فوق السحب، وفوق ذلك كله علقت الشمس.. ترى ما الذي علق فوق الشمس؟ الله وحده يعلم. سقط ظل الرب على الجبال، بينما وقف هناك مع ثوره في ظل الجبال. كان الثور عملاقاً يجر العربة للأمام.. وحفرت عجلات العربة في الأرض تحت وطأة حملها، دافعة التربة العسوية بينما انزلق الجبل ناعقاً من تحتهم. واسى هاروت ثوره، ووبخ بيرش في عقله، بينما حدق في المسافة الغائمة، *هيا، نحن على وشك الوصول، لم يعد هناك الكثير. ليست هناك حاجة لأن تعزل نفسك في الجبال إذا أردت الاختباء، من الأسهل الاختباء بين الناس. ومن جهة أخرى، لا يشكل فارقاً سواء اختبأت في الجبال، أو بين الناس، أو داخل نفسك. ما يهم هو الآتي، عندما تموت يمكنك أن تعيد للرب في أبهى صورة، الأشياء التي نلتها منه في نقاء.*

كان الطريق متعرجاً مثل مرض عنيد يأبى الشفاء منه؛ عندما التف التف معه، وعندما انزلق للأسفل، ذهب أسفل التل على ثوره، وعندما ذهب لأعلى، جلد ثوره للإبقاء عليهم صاعدين لأعلى.. أطاع أياً ما أمره به الطريق، لكنه لم يمض بما يكفي. أصدرت عجلات العربة صريراً عند احتكاكها بالصخور، ووضع الثور الظمان أقدامه ببطء أكثر في التربة الطينية المحببة وأبقاهم هناك لفترة أطول، حيث شقت الصخور في الجفاف السائد. كانت الرياح تختنق، منتشبة بأخر قدر من الهواء بعيداً تماماً بعد جلبه إلى وجهه. كانت الأغصان الجافة للحماض الأحمر محنية أمام الريح، ناثرة حبوب اللقاح الناضجة على الرؤوس الغليظة للثيران، لكنها لم تجفل وواصلت السير. ورغم أنه مد يداً ليحكم إمساك العربة مرتين ليحميها من التدرج للأسفل، فإنه لم يكن خائفاً ولم يتوقف. كانت البراكين والرياح القوية أشياء مألوفة في تلك الأماكن.

كانت كعوبه تئن، وفكر في الجلوس في العربة، لكنه شعر بالأسى على ثوره. *تلك المخلوقات المسكينة ستحتاج لشهر لاستعادة عافيتها من هذا. لكن ما الذي يمكنني فعله؟* ابتلع مشاعره، في تلك الأوقات من الجوع.. عليّ أن أفعل، فهي تعمل بكدّ، وتقصّف أطرافها بالإبر، وتحني ظهرها طول الوقت؛ هو مضيعة لمالها، لكن ماذا يمكنني أن أقول؟ كل واحد لديه حساباته عندما يتعلق الأمر بالحياة.* تأوه، مستخدماً يديه ليحمي وجهه من البذور الحمضية: *لكنني لن أفعلها.* توقف للحظة ونظر للخلف، هل هناك من يتبعه؟ هل رآه أي أحد وهو يغادر؟ كان الجبل خلفه مدعيًا أنه بمثابة يد وضعت تحت ذقن السماء، إذا انزلق اندفعت السماء للأسفل وابتلعت العالم.

انجرح الطريق أمامه، مقطوعاً إلى أجزاء فيما يبدو مثل حزمة من كلمات التأتأة في صعودها للسماء، للأعلى حتى السحب المنتفخة من قمة الجبل، كانت مثل روح خرجت حديثاً باحثة في الأسفل عن جسدها. نظر للأسفل على العالم، رامزاً إليه داخله، بكل أنقاضه، ولاجئيه، وحروبه، وثوراته، ثم استدار بعيداً بارتياح وواصل مساره. امتزجت الجبال الخضراء مع الظلام، وتحولت للأزرق بداية، ثم للأسود، وذابت في حالة غامضة في الأخير. كانت الثيران متعبة لكنها واصلت دفع حوافرها بقوة في الأرض والتحرك ببطء حملها. رنّ عدد من الأصوات في الجبال، هابطاً لأسفل ليختلط مع الهواء الذي ترفره الثيران المنهكة. من كان يتحدث مع من في تلك المهمات الخافتة لليل؛ النباح، والعواء، والشخير، والهسهسة.. ماذا كان يتدفق في أوردة الكون ليسبب مجيء مثل هذه الأصوات من أعماقه؟ لم يكن خائفاً. علم أن الشمس ستعود قريباً، تماماً مثل مجرم

دائمًا ما يعود لمسرح الجريمة. عندما دخل القرية كان القمر لا يزال ذكرى مشوشة في الظلام اللبني، لكن شمس غير ناضجة كانت تدفع بالفعل بعروشها خارج الجانب الآخر من السماء. ظهر *هراير* مُخصب البقرة في مساره، وقد دس وجبته اليومية في حقيبة صغيرة أمسكها في يديه. تتهد هاروت: *لا شيء جديد، يصرخ الأيتام بشكل مختلف الآن، وغير القديسون صلواتهم، لكن كل شيء على حاله في العالم*. فحص هراير العربة المغطاة بالقش، *ما الذي جلبته معك هذه المرة؟*، *لا شيء يا أخي* ونظر للعربة التي بالكاد تتحرك، *أي قوة نملكها نحن البشر بفعل أي شيء؟ ما الذي يمكننا أن نجلبه معنا؟ لا شيء*، *فهمت* مط هراير الكلمة وابتسم بغموض، ثم جرى باتجاه الأبقار.

لم يذهب هاروت للبيت. وجه رأس الثور باتجاه جبل تورن، وكانت تنتظره هناك، شالها ملفوف بإحكام حول خصرها الضيق، غير مرتاحة لمشاعرها ومستثارة للغاية أنها لم تكن قادرة على الإحساس بالبرد الشائك للفجر. في ذات البقعة التي تأتي إليها في الليل لتحفر حفرة وتدفن نفسها، ثم تقوم مع رائحة خفيفة.. كان ذلك حيث سقط المتاع. انزلق الصليب الحجري من العربة واصطدم بالأرض. حاولت ناخشون أن تعدله، *إنه ليس مستقيمًا*، وهي تضغط بيديها على الحجر، لكنها أنت بضعف. فحص عربته في ضوء النهار، *من المستحيل التحرك، عليها حمل مثل جبل؛ كيف يمكن لأحد أن يحركها؟*

من سنوات عديدة مضت، في مثل تلك الليلة، أخرجت ناخشون بعض العطر وعلب الكبريت والخشب المتأجج أيضًا من تنورتها وأشعلته، مسقطة البخور في النار.. وحفر هاروت شاهدًا على العظمة التي تأتي فقط مع احتقالية الحداد في الشرق؛ أغان، ودموع، ووعود، وتعبيرات الحب، والأمل، واليأس.. مسحت أنفها متعبة من الحداد وقالت: *لو كان هناك فقط كاهن يمكنه مباركة القبر*، كان هاروت مستاء، *لماذا على أحد أن يبارك مقبرة؟ على المرء أن يبارك الأحياء*.*
تحتاج المقبرة للبركة.. بركات الرب مطلوبة في أي موقف في الحياة.* *لأجل ماذا؟* حرق في المقبرة الحجرية متشككًا، دون رغبة منه ليضيف، *كيف يمكنك مباركة شيء ما غير موجود؟*
بدا وكأنها التقطت الكلمات التي لم تتطرق. *أعني، من أكون لانتقد طرق الرب؟ لكن ذلك ليس صحيحًا، إنه غير صحيح وحسب..*.

الرب لا يلام على أن البشر وصلوا لحقائق لا تتطابق وحقيقته.* أخذت نفسًا عميقًا، *لماذا لا يوجد على الشاهد الاسم وتاريخ الميلاد والوفاة؟*، *لا أدري، لم تخبريني لمن من أفراد عائلتك كان هذا القبر، ذلك سبب أنني جعلتهم ينقشون صورًا على الشاهد، أنا غير متأكد، لكنني واضح. ما أهمية أن الجميع سيفهمون أن أحدًا ما قد رقد في سلام*.*

كان مغتاظًا من اهتمامها بقطعة من الحجر، تملس عليها، وتسير حولها، وتفحص أركان المقبرة، ونسق النقش على الشاهد. كانت تحك الصليب وتقبله من وقت لآخر. *أنا لا أفهم لماذا احتجت لهذا*، *لا بد أن يكون لأطفالي جذورًا وأساسًا يركنون إليه*.* قالتها وصمتت برضا، مواصلة الترييب على الصليب، ثم أضافت: *حتى يتلو كاهن صلاة هنا، لن تكون هذه مقبرة*.* ثم غابت في تفكير داخلي حتى تذكرت فجأة شيئًا ما وهتفت: *أعرف أين يمكننا إيجاد كاهن!*

اندهش هاروت *أين يمكننا إيجاد كاهن؟* حتى إنه وجد الفكرة مضحكة – نجد كاهنًا في تلك السنوات الاشتراكية؛ حيث يتم صيد الكهنة في جماعات، تمامًا مثلما يمस्क هو بسرب من السمك، وتم حرق الكنائس؟ لكن يمكن للمرء أن يغفر لها ذلك. في نهاية المطاف، لم يخبر هاروت الناس

في قريته بهذه الأشياء. كان يترك سوء الطالع للعالم الخارجي عند عتبة التل، مثل مزارع متعب يترك حذائه الطويل المترب عند مدخل بيته قبل الدخول. نظرت إليه بمكر وقالت بإثارة: *نعم، هايكي!*، ثم تحولت للسكون نادمة. تذكرت جدتها التي كانت تدخر المال وتبقي الأمر سرًا عن زوجها، وتبرر فعلتها بضحكة وتقول: *لم يكونوا رجلًا وزوجته، لكن رغم ذلك.. كان هايكي الاختيار المثالي. كان ابن الكاهن في الدير الذي اعتادت الغناء فيه. عصف الأتراك بالدير، وقتلوا الجميع، ذبحوا الكاهن وأجبروا ابنه على شرب دمانه، فقد عقله بعدها.

استدار لها مندهشًا بحيث لم تر عينيه تتهكم عليها، *لكنه مجنون!*، *وماذا في ذلك؟ نحن ورثة الرب، لكننا لسنا الرب.. يمكنك فهم إلى أي مدى نحن بعيدون عن أن نكون الرب.*. استخدم رأسه ليشير إلى الصليب الحجري الراسخ في الأرض. *حتى اليوم تصرف كمجنون، وعامله الجميع على أنه مجنون.* تكرر المشهد أمام عينيه، عندما علقت الشباك وتشابكت بشيء ما في قاع البحيرة. أجبر على بقاء الليل عند البحيرة، لكن الريح الباردة ضربت رنتيه واشتعل بالحمل، وكان حلقة المتورم يخنقه. حتى الفودكا لم تساعده، بل صار الاحتقان أسوأ. كان لديه بعض مشروب أبيض، تلقاه في مقايضة بالسلك المجفف في مكان ما بالقرب من إيريفان. تذكر أنه وضعه في قاع صومعة الحبوب. استخدم سيخًا لينكز حولها وأزاح بعض القصاصات التي غلفت زجاجة لتر من المشروب الأبيض. فتحها وتناول رشفة. رفع ذقنه لينزلق أسفل حلقة في النهاية. تغرغر به ثم بصقه للخارج، مغلقًا الزجاجة. كانت عيناه دافئة وتحرقه. خطأ للخارج والزجاجة في يده. أفت ساتو قطعة من القماش حول إصبعها، ودلته في زجاجة الشراب ومسحت به حلقة. قالت له بينما تخرج إصبعها: *ابصق، رائحته فظيعة، هناك صديد في حلقك.* دمعت عيناه وحبس أنفاسه وبصق. *إنه خشن لا يلين.* غمست إصبعها مرة أخرى في الشراب ثم دفسته في حلقة. *حلقك متورم حقًا، لا تقلق سأزيد التورم حتى ينفجر، ويتدفق الصديد للخارج.*. أمسكت أطراف شالها وطوتها، حولته لحبل سميك. ثم جعلته يركع على الأرض ووقفت أمامه، ورمت بالحبل بجانب رقبته. *الآن حرك رأسك، وأثبت في الوضع نفسه.* وحركت الحبل بجانب رقبته في ناحية، ثم في الناحية الأخرى. *تورم، تورم* قالتها بصوت رخيم، ساحبة الحبل لأعلى بحركة سريعة عدة مرات، وتأوه.

ابق في مكانك، لم يتبق الكثير، مرة واحدة أخرى. حركت الحبل أمام رقبته مرة أخرى وسحبته لأعلى سريعًا، كما لو كانت تريد رفعه من على الأرض. *ابصق الصديد الآن! هل نجحت العملية؟*، دارت حوله وفحصت مكونات بلغمه في الطبق المبعج. *دع أحدهم يأتي ويكون معك الليلة. إذا لم يندفع الصديد للخارج، ستعاني قليلًا، هناك خطر أن تفقد الوعي.. لا تبقى وحدك! أو انزل للحى واطلب من *جانو* أن ينفخ في فمك، هذا سيُنهي الأمر في لحظة.*.

عاد هاروت وشال ساتو ملفوف حول رقبته. كانت *أرشو* زوجة *سوجوس* منتظرة بالقرب من الباب، وجوال الدقيق عند قدمها. *لقد أعددت لك يا أخي.. لا تفكر ولو للحظة أنني لا أرغب في أن أكون جزءًا من هذا.. أنا بشر أيضًا، وأريد أن أساعد.. لكن هذا الشاب مجنون!*، ركلت الجوال بخفة، *خذ هذا وأعطني جثمانًا آخر، رجاء أن تفهمني هو مجنون، ونحن مجرد بشر*، وانحنت على الجوال وفكت رباطه ثم قلبته وأفرغت محتوياته؛ هايكي.

تمدد الرجل الشاب قليلًا على التربة، وتلوى مثل دودة، ثم بدأ يحدق في السماء وتجمد. *ماذا كان

يفعل؟*، *يضحك بلا سبب واضح*.

وماذا في هذا؟، *بربك، ماذا في هذا؟ لو بدأ الأمر بضحكة غير متوقعة، هل يمكنك تخيل كيف سينتهي الأمر؟ لدي ثلاث بنات كما تعرف، وهذا الرجل شاب وصل للبلوغ، وهو يراهم، ويضحك.. أي شيء ممكن، الأمر شديد الخطورة، أنا أسفة..*، اندفعت كلماتها واستدارت بعيداً دون النظر إلى هاروت وغادرت. *أنا لا أدري.. أعني، كل ما فعله أنه ابتسم لنفسه*، تخلى عن مقاومته عند رؤية عيني ناخشون اللائمة. تنهدت وقالت: *إذا كان ذلك كل ما نحصل عليه منه.. يظل كافياً*.

دون تضييع أي وقت، ذهبت ناخشون في اليوم التالي للبيت الذي بناه هاروت لـ هايكي، بعد أن حملته أرشو زوجة سوجوس وأفرغت جواله عند قدمي هاروت، كان قد عاش لفترة قصيرة في بيت هاروت، لكن هاروت أحب عزلته كما أحب حرّيته؛ لذلك بنى له بيتاً، وأخبر النساء اللاتي رعين له حيواناته أن يطعمنه ويغسلن له ثيابه. تخلى هاروت عن أسلوب حياته المفضل؛ لأن ناخشون استقرت بهدوء في عزلته، مثل حلاوة على شفتين أمتين، ومثل ذهب في ظلمة حزينه. عندما وصلت رأيت أن رعاة البقر الشباب كانوا يدفعونه حولهم، ويضربونه بينما يسحبونه باتجاه القرية. تبين أنه كان يحفر حوله في أرضية الملعب ووجد شيئاً لامعاً ودائرياً. *ذهب، ذهب*، صرخ الأطفال بابتهاج ورقصوا، *وجدنا ذهباً..* وسط هذا الابتهاج أخذ هايكي قطعة الذهب ورماها بعيداً. *لماذا فعلت ذلك يا رجل؟ ألم تر أنه ذهب؟ ألم تر أصدقاءك سعداء بهذا؟*، ارتجف وقال: *رأيت، وفكرت أنه سيكون ذهباً إذا وجده شخص آخر وشعرت بنفس الفرح..* خطفته ناخشون من بين الصبية وأخذته معها. *سأتلو الصلاة، وارسم علامة الصليب مثل أبيك..* كان الأطفال يلعبون لعبة *الأرواح الشريرة* التي تلعب في عيد الصعود؛ أولاً قطفوا حفنة في حجم الكف من الأوراق الصفراء لزهرة الحظ الطيب، امتصوا رحيقها ورموها بعيداً، وعندما شبعوا تماماً نسجوا الأكاليل المصنوعة من الزهور والفروع دائمة الخضرة، وضعوها على رؤوس الفتيات، وساروا للأسفل إلى القرية. مناخل الدقيق معلقة في خصورهم، وسارت الفتيات أمامهم، والصبية الصغار في الخلف، والجميع يغني: *الله الحمد، الله الحمد.. من يحب أن نحمده؟ الحمد للجدة هايكوش!*، جرت الجدة قدميها إلى ركن البيت ملتقطة البيض والحلوى التي وضعتها في مناخل *الأرواح الشريرة* حتى يبعدوا الحظ السيئ بعيداً عن منزلها للعام القادم، في المقابل يتحرك الأطفال راضين بغنيمتهم، تغطيهم الزهور والعشب إلى البيت التالي. *لمن الحمد، لمن الحمد.. من يحب أن نحمده؟* يتلقفون الغنائم؛ حلوى، وفواكه مجففة، وبيض، وجبن، وحلاوة.. تكاد مناخلهم أن تمتلئ عن آخرها، ويدور الأطفال حول المكان باتجاه الحي التركي. *لمن الحمد، لمن الحمد..*، لكنهم توقفوا فجأة وعلا صوت هاروت الأجنس: *هاروت أنهم يضربون ناخشون!* عندها اندفع غاضباً، وكان بعض الناس قد فرقوا بين الأطراف المتعاركة، تقوم ناخشون ببطء من على الأرض وتتفض تنورتها من الغبار، ويبيرو لا تزال تغمغم لنفسها، وهي تبتلع غضبها. حل هاروت السوط المصنوع من شعر الحصان من وسطه، واستخدم القطع الحديدية المثبتة في أطرافه ليجلد الأرض تحته، بينما انتظر الإجابة عن أسئلته. شرحت أستجيك، ابنا نادى علينا مثل الأتراك.. استحق الضرب الذي ناله.

تمادت بيرو في الاستفزاز، *حسناً، أنتم أتراك، أستم كذلك؟ ذلك ما أنتم عليه بالضبط، قتلة.. كدتم تقتلعون عيني الطفل*. وأدارت ابنا جهة هاروت ليري عينه المتورمة المحققة بالدماء. انتظر

هاروت أن تشرح له بيرو، ورطم الصخور عند قدميها بالكلابات الحديدية على السوط؛ قالت بيرو: *لست نادمة* وهي التي عاشت بلا رجل لأكثر من عشرين عامًا، وتلقت السياط على الصخور كتعبير عن حب هاروت لـ ناخشون.

تأمل رؤوسهم الطويلة.. هكذا تبدو رؤوس الأتراك بالضبط. لماذا جاء أولئك الناس وقسموا قريبتنا الحكيمة -المبينة على خوف له ما يبرره- إلى أرمن وأتراك؟

هتف هاروت باقتضاب، كما لو كان يجعد الكلمات إلى قبضة ستضرب بيرو: *لا تقولي تلك الكلمة ثانية أبدًا!*

أنت بلا قلب كانت بيرو غاضبة بينما قاطعته بسرعة وحدة، وانقضت بكلامها على نحو مفاجئ إلى ناخشون، لماذا لم تقفزي من ذلك المنحدر مثلما فعل العديد من الأرمن الآخرين، بدلًا من أن تمنحي نفسك لأولئك الأتراك، ثم تجلبي تلك المخلوقات إلى زريبتنا؟*. كانت *نايومي* بين المجتمعين حول مسرح الواقعة، وشعرت بالإهانة، *تنتحر؟ كيف يمكنها أن تبرر نفسها أمام الرب بعدها؟ من الأفضل أن تتعرضي للإهانة أمام الجنس البشري كله على أن تتعرضي لها أمام الرب*. بصقت بيرو متسامخة، بطريقة تتم عن الشعور بالتفوق رغم اصطناع بعض اللطف، بربك.. إذا كان لها أي قيمة أمام الرب، لم يكن ليحدث لها ما حدث*. أشاح هاروت بنظرته المحدقة الغامضة عن بيرو، كما لو كان يزيح جملاً ثقیلاً. علق رأسه وسار بعيداً، مواصلاً جلد الأرض تحته وهو يغادر، بعدها ببرهة كانت العربة والثور على باب بيرو.

هاروت، أيها العظيم، كن منطقيًا. ماذا فعلت؟ أنا فقط كنت أحمي طفلي، كانت تبكي، *لو كان فكّي تحطم قبل أن أتقوه بتلك الكلمات.. إلى أين ستأخذني أنا وأطفالي الأيتام؟ كيف يمكننا أن نعيش في أي مكان آخر؟*

بيرو، نحن ننكر حتى الرب عندما يأخذ منا أشياء بعيداً.. لقد ذهبت لأبعد مدى كذلك، لو كنت حقاً تفكرين في رفاهية أطفالك الأيتام تكلم بهدوء لكنه واصل ضرب الأرض بسوطه، *عليك أن تسرع حتى لا نجبر على المغادرة بعد حلول الظلام*.

سارت ابنة بيرو الكبرى باتجاههم، ورمت منخلها المليء بالحلوى والتراب عند قدمي هاروت، وحدقت فيه بغیظ وعادت للداخل. خرجت بملاءة سرير، وضعتها في عربته ثم حدقت فيه بنظرة تهديد قبل أن تعود للداخل.

عاد هاروت بعدها بعشرة أيام، قالوا إنه أخذهم إلى منطقة حول آران، حيث كان على عائلة بيرو الاستقرار في بيت جديد. ولم يكن أطفالها ضئيلي الأجسام قادرين على الذهاب لصيد الأسماك في تلك الأماكن، ولا أمكنهم العمل كعمال في المدينة. لكن التربة في آران كانت جيدة، وتتحمل زراعة محاصيل في العام. كان أطفالها يكدون في عملهم، كانوا يفلحون الأرض، ويرعون المحاصيل. وقالوا إن الرحلة إلى آران والعودة منها تأخذ عشرة أيام بالضبط.

يوم عودته، جاءت ساتو لرؤيته، هل تمكن من جلب الرويال جيلي من عسل النحل والشراب الأبيض الذي طلبته؟ وثرثرت عن هذا وذاك من الأمور، ثم انحرفت بالحديث إلى شيء آخر في حقيقة الأمر، *فقدت ناخشون عقلها كلياً بعد تلك المعركة.. كما لو أنها لم تعد قادرة على التفكير السليم بعد. عليك الذهاب لرؤيتها..* قالتها وغادرت، دون أي تعبير عن مشاعر بعينها أو تفسير إضافي. ولم يسأل هو أي أسئلة. وعندما حل الظلام، رغم أنه دائماً ما تجنب الظهور، ليس فقط في منزلها، لكن حتى في حديقتها، بالنظر إلى أنها كانت تقوم على تربية فتاتين شابتين، ولم يعتدن لا

هن ولا جيرانهن وجود رجل في الجوار.. ذهب إليها. كانت جالسة هناك، ونسجها الذي تطرزه في حجرها، ورأسها محني كالمعتاد، وإبرتها في منتصف عملية تطريز على نسق ما. ففرت لأعلى من مفاجئة رؤيته، وأسقطت التطريز على الأرض، وترنحت بينما حاولت الحفاظ على وضعها واقفة على قدميها. شرحت الأمر: *أشعر بالدوار.. من البكاء والضرب*.
نظر إليها محاولاً إيجاد شيء غير معتاد فيما قالت، أو في سلوكها. قالت دون النظر إليه في عينيه:
فكرت في شيء حادق، جلس إلى جوارها ناظرًا إلى الأطفال نائمين على البساط، وسأل هامسًا:
ثم؟

خذني بعيدًا عن هنا، أرسلني إلى العالم الخارجي.. لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، أي حياة تلك التي أعيشها؟ الناس في قرينك متوحشين، لا يباليون بالرب ولا بالصلاة. و أساها قائلاً: *هم يباليون، لكنهم لا يستفيدون كثيرًا من الرب أو من الصلاة، فكلهما لم ينقذوهم قط من قبل.. كما كان الأمر معك*.

حسنًا، لا أستطيع مواصلة الحياة دون صلاة.. ما الذي يتوجب علينا فعله؟ خذني بعيدًا عن هنا!

إلى أين؟ كان واثقًا أنه لا يوجد من يمكنه الإجابة عن السؤال؛ لذا حاول إقناعها، *صدقيني حين أقول لك أنه لا يوجد أي مكان أفضل لك من هنا.. إذا كانت المسألة فقط تخص الرب والصلاة، إذن عليك أن تعرفي أن العالم الخارجي لا يبالي لا بالإنسان ولا بالإنسانية، الناس هناك لا يصلون، هم يضربون المصلين منهم بالدموع كما يضرب المرء صدره في الجداد.. العالم عبارة عن صحراء يا ناخشون؛ صحراء من العزلة الإنسانية..*.
ساعدني سقطت على الأرض عند قدميه، *أحتاج إلى أن أعمد أطفالي.. عليك بتعميدهم، علينا محو ذلك الاسم القبيح بالزيت المقدس* *ميرون**.*
هل هذه دعابة؟، *ساعد أيتامي..*.

وقف وقال: *حسنًا*، نظر نظرة خاطفة إليها وغادر.
ظل أطفال الجيران ينادون: *أنا هيت، أستيج، أنو؟*، وفتت في مدخل بيتها، *ماذا هناك يا أطفال؟*
هل يمكنهم الخروج واللعب معنا؟ *لا يمكنهم، هم ليسوا على ما يرام* *أوه، لا! جدتي صنعت بعض الحساء، هل تريدين أن أذهب وأجلب بعضًا منه؟* *لا - لا - لا...* كانت مذهولة، *هم مصابون بالجذري المائي، ستصابون جميعًا به إن لعبتم معهم!*، واندفعت إلى الداخل.

أمطرت في ذلك المساء، وبدت السماء قريبة جدًا حتى إن الرعد دمدم في أذان الناس. كانت ناخشون تسرع هنا وهناك مذعورة. أغلقت باب الإسطل، ثم غطته بالقش.. في عقلها تجاوزت ما حدث، مستعيدة الأشياء بترتيب وقوعها مرة أخرى. أخذوا جزءًا من سرير ساتو وأعطوه للفتيات، وخبأوهم تحت صخرة الملح، وغادر هاروت في المساء وصحبهم لتعميدهم.
عند الفجر، بعدما غفت ناخشون وصحت عدة مرات، شاعرة بهدير الرعد في بطنها، انفتح الباب فجأة محدثًا صريرًا. وعندما فتحت عينيها، كان هاروت قد وضع أستجيك بالفعل في سريرها، ثم خرج ليحضر أنا هيت. نظرت إليهما بحبور. همست: *المجد لك يا رب*، بينما مسدت عنق أستجيك، مزينة الصليب من الحبل ثلاثي الألوان، قبلته ورسمت الصليب على صدرها.
شكرًا جزيلاً لك.. دمعت عيناها بالسعادة بعدما استقبلت هاروت بيدها بعد عودته، ووضعت أنا هيت النائمة في سريرها بعناية.

من كان أبوهما بالعمادة؟ عندما يكبرون، سنذهب لمقابلته. من المحتمل أن العالم سيكون مختلفاً عندها، لا يمكنه البقاء على هذا المنوال للأبد، هل يمكنه؟ سنبنى رابطة مع أبينا الروحي. بناتي كبار الآن، سيكون قادرات على تذكر وجهه، واسمه، وقرينته.
تمتم: *لا أظن ذلك..*

ماذا تعني؟ هل تم تعميدهم؟ كان هناك خليط من الكراهية والإرهاب في عينيها. *لقد عمدتهن.. شمي جباههن حتى، ألا تشمين رائحة الزيت المقدس؟ الأمر فقط أنهما لم يستيقظا منذ ذلك اليوم.. لم يعرفن قط أنهن قد عُمدن.. هذا أفضل لهن.* قام ودار حول المكان، وقال وهو عند مدخل البيت: *لا تخافي، سيستيقظن في الصباح، عليّ المغادرة في جنح الظلام، لا أريد لأي أحد أن يطلق شائعات أخرى عنا* ابتسم لها وهي متوهجة بالفرح وغادر. *نعم، وأحصل على بعض النوم، أيها المسكين، اذهب للنوم، وأحصل على بعض الراحة.*

أغلق الباب خلفه، وأخذ نفساً عميقاً من الهواء البارد، الكثيف، اللبني، ثم أسرع الخطي. تذكر شيئاً ما وتوقف فجأة. جثمت ناخشون إلى جوار بناتها، وقامت مذهولة عند عودة هاروت. نظرت إليه بانتظار تفسير ما. قال وهو شبه نائم، ويده تتجه لمحفطته الصدرية: *نسيت، فقد اشتريت لك هدية*، وأخرج شيئاً ما مغلفاً في قماش عليه زهور للأطفال، وقدمه لها. أخذته، وحلت غلاف الهدية بعناية. هتفت برهبة: *إنه كتاب الرثاء لـ ناريك*! قال كلمات شكر صامتة لرجل المبيعات المنتكر، الذي اشترى منه مسدسات في عدة مناسبات، علم أن الرجل يمكن الوثوق في بقاء فمه مغلقاً، وطلب منه إحضار إنجيل، لكن يحتمل أنه خاف من المشاكل، فمنحه هذا الكتاب كبديل، وقال: *هو كتاب مسالٍ في القيمة للإنجيل*، رافضاً قبول أي ثمن، لا يمكن مقايضة تلك الكلمات بأي مال.. خذه، أنت تستحقه.*

سألها: *هل يعجبك؟* رغم أن الإجابة كانت واضحة بالفعل. *عن ماذا يتكلم؟ يقولون إنه في مقام الإنجيل. رفعت الكتاب بأصابعها البيضاء وقبلته قبل أن تضعه جانباً،* إنه كتاب ناريك، هو يتكلم للرب وجهاً لوجه.*

لم يصدقها، *هل هو يعرف الرب؟*، قالت مؤكدة وعيناها تتحرك بحرارة بينه وبين الكتاب: *نعم يعرفه.*

فكر مع نفسه *إنه أمر رهيب.. معرفة حدود شيء ما نوع من الحرية، الرب لن يعجب بذلك.*
حسناً قام ونظر باتجاه البنات النائمة، *سأطلق.*

عندما أغلق الباب، ونظرت عليه من النافذة، وتأكدت أنه رحل، غلفت الكتاب في القماش المزهر مرة أخرى، وضغطت به على صدرها، وظلت هكذا للحظة، ثم وضعت على الطاولة الخشبية حيث كانت الشمعة تطفئ وستومض بين الحين والآخر.

ركعت إلى جوار أسرة بناتها، وتحسست صلبانهم وأزاحتهم من أسفل ملابسهم مرة أخرى. حلت الحبال ثلاثية الألوان التي علقوا منها، ووضعت الصلبان على السرير. *تشبثن بتلك الصلبان*، تكلمت لبناتها في ذهنها: *تلك أرواحكم، الأشياء الوحيدة التي تملكونها.. تلك هي الأشياء الوحيدة التي ورثتموها من الرب، تمسكن بها بقوة.* لفّت الحبل ثلاثي الألوان حول كل صليب وأخذته لحفظه بينما البنات نائمات. نظرت نظرة خاطفة على الباب، بداية بخوف، قبل أن تفكر بحرارة في هاروت، *كم عدد المصائر التي تشابكت بمصيره في هذه القرية؟ كم من المرات جاء ذلك الرجل المسكين وذهب في الليل؟ كم طن من الصخور الملحية حملها على عربته مع ثيرانه المتعبة..*

سارقون، وبغايا، وعاشرات.. أمكن تسمية الأخوات بتلك الأسماء بشكل مبرر، لكنهن كن جميلات. يقول الفلاحون برهبة: *عندما تكون التركية جميلة، فلا يوجد ما هو أفضل من ذلك*. *لماذا التركيات فقط؟ هناك الكرديات والشركسيات والليزجيات.. هناك ربما العديد والعديد من الأعراق التي تصلح هنا – كيف يمكنك توقع أنهن قبيحات؟* قالت النساء اللاتي ملن -متعبات من الشجارات التي يبداًنها- ذلك الكلام بغطرسة.

كان المهاجرون حرفيين مهرة، اخترقوا الجبال سريعاً، وصاروا تحت جلودها، استخرجوا الطين وبدأوا في صناعة الأباريق. خاطت ناخشون الشراشف للعرائس حديثي الزفاف، وشباشب صغيرة لحديثي الولادة، وشراشف برسوم على شكل البقلاوة، أو بيضاوية، أو مزهرة. *هاك، من أجل ليالي دافئة معاً* تقول ذلك وهي تضع الغرزة الأخيرة في الملاءة المطرزة، كما لو كانت تستعيد الكرامة التي سرقها منها الأتراك من سريرها، حتى إنهم زرعوا أشجاراً في فجوات تلك الجبال، مانحين بها غطاء يصد الريح والبرد عنهم، لكن سلوك الأخوات كان كفيلاً بمحو أثر كل تلك الجهود.

كانت الأخوات يعملن على الطين، يذهبن مع الرجال إلى الجبال ويعدن معهم محملين بالطين إلى القرية؛ حيث يخلطونه بالبييض، والتبن، والماء. يدلكون الخليط بأيديهن العارية، ويرفعن التتورات التي ثقلت بالطين المبلل، والنظرات الحارقة للرجال إلى سيقانهم العارية، تدلك هي الأخرى في الطين، بينما يدسن بأقدامهن عليه. تُملأ الأباريق التي يصنعونها بالدقيق، والجبن المخبوز، والجبن الريفي، والفجل المخلل، والزعتر، والخميض؛ ومن ثم يُحمّلها هاروت على عربته، ويغطيها بالجلد المجفف للأغنام، والذئب، والثعالب، قبل أن يذهب بها من بايازيت إلى إيريفان، ومنها إلى آارات وارتاشات، حيث يبيعهما أو يفايضاها. كانوا يبيعون سلعهم في القرية أيضاً؛ الأطباق، والأكواب، والأباريق، والجرار، ولعب الأطفال.. لكن الويل لأي أحد يشتري من واحدة وليس الأخرى، أو من يمدح عمل إحداهن في حضور الأخرى. تتمترس الأخوات بعضهن في مواجهة بعض، وتقوم معركة. تقول إحداهن للأخرى: *يا للخسارة حليب أمك!* وتقول الأخرى: *يا للخسارة صبر أمك!* لا يمر يوم دون أن يجلد بعضهن بعضاً، لا يزالون على قيد الحياة، لكنهن يفسدن مكانهن في العالم الآخر. في هذا العالم، في قرية؛ حيث قبر الأم يساوي ما هو أكثر وأغلى من الأم نفسها، أثارت شجارات الأخنتين قدراً من الغثيان قريباً من شعور الغثيان تجاه آكلي لحوم البشر.

اللعة على الطريق الذي جاء بكن إلى هنا.. هكذا كان أهل القرية يصبون اللعة عليهن. كانت ناخشون تتضاءل، وتشعر بالعار من سلوك بنتيها، بنفس قدر العار الذي شعرت به تجاه سلوك العالم.. كانت تدفن أنفها تحت إبطها وتبكي في صمت. كان أوينز يمدحها، محاولاً تلطيف حنق الفلاحين. *تعرفون هن حفيدات من؟ أتعرفون أي نوع من الرجال كان أبو ناخشون؟ كان يهب أربعين شاة ليأكل الناس كل يوم. هل تعرفون أي نوع من الرجال كان خطيبها؟ كان يعلم كل يوم أربعين طفلاً كيف يقرأون. هل تعرفون من كان أخوها؟ ومن كانت هي أيضاً! وكيف كانت تغني! وأي طعم عظيم للأكل الذي تطبخه، ويتواصل مديحه ليقول: *أنتم لم تتذوقوا *كنجرو* مثل ذلك من قبل*. وكان ليغلق عينيه حالماً.

كان هناك أيضاً أولئك الذين رغبوا في ناخشون بشدة، حتى إن *أسانيث* جاءت لتطلب عروساً لابنها الذي لم يبلغ بعد. *سأوافق على من تعطيني منهما* مبتسمة إليها. وقد جلبت معها حفنة من

السكر كهدية، *لا تفكري كثيرًا في الأمر، فيما خص الفتيات فإن حظهن الطيب يقع مع أول شخص يطلب يدهن، لن يكون الآخرون الذين سيأتون لاحقًا أفضل من الأول*. في الوقت الذي رأت فيه ابن آسانيث غير البالغ – كان الفلاحون يقولون إنه يفعل كل أنواع الأفعال مع الحيوانات عاليًا في الجبال – كانت ناخشون عادة ما ترتجف وتفكر *أوه، يا ربي.. الطبيعة يمكنها أن تصب اللعنة على الناس بكل أنواع البلاء*. ترد بهدوء: *أنا لا أرى رجلًا هناك؛ لذلك لا يمكنني اعتبار هذا نصيب ابنتي الطيب*. *لا يوجد فائدة ترجى من التفكير بعمق في الأمر يا أختاه؛ ستحمل في طفلك، ويكون لها وريث، وبيت لتديره. انظري لبيتي، بحديقته، ومخزونه من الماشية..*
يمكنك أن تقدري قيمة حديقة وماشية في بيتك، فقط عندما يكون لديك رجل حقيقي إلى جوارك وتتهدت، *ولا بد أن تكون نطفة الرجل من نوعية جيدة.. حتى لا ينتهي الأمر بالأبناء من صلبه ليكونوا عبثًا.. يقولون إنه ليس رجلًا بالمرّة*.

لا تتراجع آسانيث، *حسنًا، ماذا في ذلك؟ في نهاية المطاف، أنتم أتراك!، ثم بصقت وغادرت. لكن هذا لم يكن كافيًا لتهدأ، أعلنت بصوت عالٍ في الخارج بما يكفي أن يسمع الجيران، *يمكنك الاحتفاظ ببناتك الشرهات لنفسك.. إذا كان هناك أحد ما سعيد بأن يقدم أي شيء وكل شيء هنا*، ضمت ثلاثة أصابع معًا ورفعتها لفتحها، *الشيء نفسه سيبقى في الحضيض هنا أيضًا*، وحركت أصابعها المضمومة للمنطقة ما بين ساقها، *دعيهن يحتفظن به لأنفسهن..*
ظلت ناخشون بعد أن ذهبت جالسة لوقت طويل، وعلى وجهها تعبير جامد، وذراعاها ملتقان بحلق في حجرها، دون أن تسمح لنفسها بأن تذرف دموعًا واحدة، محدقة باقتضاب، وخشونة، وغضب في الجبال التي بدا أنها ترتفع لما لا نهاية، *هذا سيئ للغاية؛ يجب على العالم أن ينتهي هنا في هذا الطريق*.

يقع اللوم على ثلاثتهم؛ الدجاج الذي لا يبيض، وساتو التي اختارت أن تذكرها بالدين المستحق عليها في أكثر الأماكن العامة ازدحامًا، والنهر الذي صار غير قادر على امتصاص الصرخات الآتية من منزل *نوشيك*؛ بحيث إن القرية بأكملها علمت أن الأم والابن كانا يقتل بعضهما بعضًا هناك، وكذلك الريح التي أمكنها أن تشوش على أي صوت وتحبسه في الكهوف، وكانت تجلب همسات الشباب إلى القرية، كما لو كان لهدف ما. باختصار لم يتقاجأ أحد بالأحداث التي انكشفت، بدا أنها تطابقت مع توقعات الجميع عن المستقبل.. قبلها، عندما كان أهل القرية يشتكون لـ نوشيك قائلين: *ابنك ينزل إلى الحدائق ليلاً مع آناهيت، وهم يدمرون محصول البطاطا هناك بخداعهم للجميع، ومغازلتهم لبعض.. زوجيه!* كانت تتصرف بحق وتطلق تهديدات فارغة، *لا يعنيكم منكم يقول هذا.. أنا لن أدعها تعبر عتبة بيتي*. ثم أدركت أن ابنها لا يوافق على موقفها من الفتاة، وقام الجيران باستنارتها كذلك، *اسمعي يا امرأة، يمكنك الإمساك بالمزيد من الذباب بالعسل، أي حق تملكينه لتحكمي عليها؟*، عندها انتصبت وبدأت في إلقاء محاضرة عليهم بهدوء: *من يولد هكذا لا يمكن أن يكون شخصًا طبيعيًا.. الألم الذي تعرضن له.. سيكون له صدى في عروقهن لقرون.. من ذا الذي يمكنه أن يجد سعادة بجانبهم؟ سينتهي بك الحال تعاني لباقي عمرك؛ بسبب المصير الذي كتب عليهم*.

في نهاية المطاف، بدأ النهر يصدر صوتًا مثل الغرغرة مع شجاراتهم، عندما يصيب اللعنات يلقيان بها من إحدى ضفتيه إلى الضفة الأخرى.

عندما جاءت الأنباء، كان هاروت يقطع الشجرة التي صعقها البرق. كان ذلك بالضبط كيف انطلق

إلى الوادي الجاف، والبلطة لا تزال في يده. ضرب أحدهم هاروت الصغير، وتدفق الدم من أنفه وتجمع في حلقة. كان الصبي يختنق، وبقيء، لكن الدم ظل يتدفق بأسرع مما أمكنه أن يبصقه للخارج. شعر بطعم الدم لأول مرة، وظل ينادي على أصدقائه وهو في حالة من الذعر، *أخبروا هاروت، أخبروا هاروت..* عندما جرى هاروت إليه هتف: *ابلعه، ابلعه.. حتى لا تختنق، حتى لا تخاف الدم في المرة القادمة.. ابلعه!*

صف هاروت الصبية على حافة الوادي، وبدأ في جلددهم بحبل شعر الحصان. *حبل؟* كان أكثر من حبل، يهسهس بينما ينزل ويشق الهواء، ممزقا الصغار عند ضربهم، فنتفجر أوردتهم، وتتناثر الدماء الدافئة في كل اتجاه. تأوه الصبية وتلثوا من الألم، لكنهم قاموا بسرعة. لم يشرب بعضهم لبعض بأصابعهم، تابع أهل القرية الذين تجمعوا المشهد، لكن لم يجرؤ أي منهم على إصدار صوت. *ميكهاك* الذي كان ابنه في مقدمة الصف، يئن ويقسم مع كل ضربة نزلت على ابنه: *كيف تجرؤ أن تضرب ابني؟ هل ستفعل؟ هل تظن أنه ليس لديه من يدافع عنه؟* بمجرد أن استدار هاروت ونظر إلى الحشد، كان ميكهاك ذاك الذي لا يحس بأي عار يبتسم، *افعلها، اجلدهم جيدا حتى يدركوا أنهم يجب ألا يقدموا على الخطأ ذاته ثانية*، بعدها يستدير هاروت للخلف، لمجموعة الصبية الصغار، ثم يعاود ميكهاك تهديده: *كيف تجرؤ..* منشجعا ومستعينا بالسموات. أخذ هاروت الصغير للبيت، بقميصه الممزق الملوث بالدماء ملتصقا بظهره، وهو يفكر في المرة الأولى التي ذهب فيها للعالم الخارجي مع بيرش، عندما سحبته النادلة من ذراعه في حانة في إيريفان. *خذوا الصبي وافتحوا له عينيه* ودفع هاروت باتجاهها، لم تكن عيناه مغلفتين، بكل صدق، كما افترض بيرش. وعندما عاد بالرحلة لم يكف عن إخبار أصدقائه: *كنا نختفي في حديقة البطاطا التي يملكها *ليبو* طوال الوقت، منتظرين ذهابه للنوم، حتى نتناوب على معايشة زوجته. كان بالمدينة عاهرات، يمكنك أن تقرص مؤخراتهن في وضوح النهار، تخيل ذلك!* دون ذكر حقيقة أن أطفال ليبو الثمانية وضعوا من حلقات زوجته حتى صارت هزيلة وزرقاء، وكانت رائحتها أقرب لرائحة أم منها لأي رائحة أخرى. لكن المرأة في الحانة.. ذلك ما يجب أن تكون عليه العاهرة؛ صغيرة، جميلة، بحلمات زهرية مرحة، وجلدها له رائحة زيت عطري أخاذ..

لام نفسه، بينما سار هاروت الصغير أمامه؛ كانت غلظته، عندما سلخ حيوانا، وجمع محصوله من السلع، وعاد من العالم الخارجي، وجمع الأغصان الجافة. كان دائما ما يصنع حزمة ويعطيها لهاروت الصغير ليحملها. *أعط هذه لـ ناخسون، المسكينة لا زوج لها ليرعاها، وهي تربي أطفالا بلا أب.*

كانت القرية بأكملها مليئة بنساء لا أزواج لهن، وبينما هي تربي طفلين بلا أب، فبعض الأخريات يربين اثني عشر طفلا، فلماذا هي المسكينة؟ كان هاروت الصغير يشتكي من ثقل الحزمة. *هي مخصصة، هي تستحق.*

*لماذا؟ هل *بايتزار* عاهرة؟ هل *مارو* عاهرة؟*

هن مخلصات للمتعة التي خبرنها في الماضي، بينما تلك المرأة لم تعش حياتها، الأمر مختلف تماما أن تظل مخلصا لسوء الحظ، إنه نوع من البطولة.

ها كان هاروت الصغير ينفخ ما أن يكون خارج نطاق سمعه، ويقول: *أعرف نوع البطولة التي تفكر فيها..*، سار الصغير أمامه، مدليا رأسه للأسفل، يمسح أنفه بذراعه من وقت لآخر، ليتأكد أن النزيف قد توقف، ضربه على قفاه بمودة، *أنت أيها الجرو الصغير، ارتفاعك من الرأس إلى

إصبع قدميك ليس طويلاً كفاية، لكنك في مأزق بالفعل نتيجة شهوتك؛ إذا كان هذا حالك وأنت في الخامسة عشرة من عمرك، ماذا سنفعل معك عندما تكون في العشرين؟*
كانت ساتو تجمع بيضها وترتبه في السلة، وتحفظه في القبو البارد المظلم، وكلما رأت هاروت كانت تستعجله: *أسرع، عليك بالذهاب للعالم الخارجي.. عار إذا ما فسد كل هذا البيض.*
أوه، ساتو، ساتو.. سيكون موتك موتاً صعباً!

*هيا أخي، ذلك خارج عن إرادتنا، بالنسبة للوقت الراهن، يرى الرب أنه من الملائم لي البقاء هنا. كان يقول لها: *آه، لو لم يكن الأمر بيد الرب، فمن كنا لنلوم على خطايانا؟*
في ذلك اليوم، تتوح الأمهات اللاتي لهن أبناء في القرية، بينما يغسلن قمصان أطفالهن الملوثة بالدماء، ويصبون ماء الغسيل في النهر، ويجعدن الرعب من عبء أفكارهن. ماذا لو انتهى الأمر بابنهن مداناً؟ عليهن أن يأخذن تلك العاهرة للداخل؛ لأجل خاطر الابن.

رغم أن الأمر استغرق بعض الوقت حتى تبدأ ناخشون في قبول البيض كثمن لشرائها، غالباً لتتمكن من دفع أجرة ساتو، فقد كانت بناتها منفتحات على هذه العملة (البيض) من البداية مقابل الخدمات التي يقدمنها في الليل، وبذلك تحول البيض إلى وسيلة قياس بين أهل القرية.
يا لها من ليلة، يا لها من ليلة كانت؟ أو *اشتريت قرداً.. كلفني ألف بيضة!،* *واو، ألف بيضة.. تقريباً هذا يساوي جهد ثلاثمائة ليلة في الفراش.. هذا مكلف جداً.* لكن بعد ذلك الشجار والضرب الذي تطوع به هاروت، تعامل الناس مع الأمر بجدية.

اجتمعت النساء في الصباح، وذهبن إلى منزل فارسو، مشاعرهم الغاضبة تغلي في قلوبهن.. حتى الرياح لم تصرخ هكذا عندما عصفت ومزقت السماء.. كانت قمصانهم ممتلئة بالحجارة، وألقوا بها كلها على منزل فارسو. كسروا نوافذها، وحطموا بابها الخشبي، ونزعوا مفصلات. هربت ساتو من المنزل، والأمير بين ذراعيها، واختبأت في الخُص. صرخت النساء بصوت هيسيري:

اخرجي هنا أيتها المرأة التي بلا قلب.. نعرف أن أبناءنا يتسللون من أسرتهم ويخرجون من بيوتهم، ويذهبون لمنزلك ليستمعوا لحكاياتك.. لكن الأمير لم يكن واعياً في واقع الأمر بما يدور مع أناهيت، أو بالطفل الذي ينمو في أحشائها. لكن قبل أن يدركوا أيّاً من ذلك، كان الأوان قد فات. بغض النظر إذا ما كان الأمير غرق في مسيرته أو أن وحشاً ابتلعه، فالموقف لا يمكن تجنبه.

جلس ابن الملك وحصانه، لسبعة أيام وسبع ليال، جائعين وعطشى في الظلام، على الرماد الدافئ للخُص، حتى يستطيع هاروت السيطرة على النساء ويرسلهن لبيوتهن. في اليوم السابع، خرجت فارسو من الخُص، قدماها متربتان، بعيون باهتة. قالت شاعرة بالذنب: *أيها الناس، هزم ابن الملك أربعين وحشاً، وعليه أن يهزم أربعين آخرين. كان منهمكاً في قتل الوحوش، كيف له أن يعرف بما يجري هنا؟*

مسكينة فارسو! حاولت كثيراً – أرسلت ابن الملك من عالم إلى عالم آخر، وجعلته يمرق من سَم الخياط، ومنحته قلباً مزيفاً مع صرخة ملاك – لكن شيئاً لم يفلح، لم يكتشف أحد قط من كان الأول، لكن.. الحقيقة كانت أن إحدى الفتاتين كانت حاملاً. أمسكت النساء بـ ساتو من رقبتهما:
ساتو، أنت تدينين لنا بشال صوفي، أخذت ذلك الشال الأخضر من زمن، لكنك لم تتجزي المهمة التي كلفت بها، الآن عليك أن تسددي دينك بشكل ما، أنقذي أبناءنا من أن يكونوا آباء لأوغاد، وأزواجاً لعاهرات. لم نعد نقبل بهذه الإهانة أكثر من ذلك!!

نادت على الفتاة الحامل وقالت: *أنت ستلدين طفلاً بلا أب. ما المقصود؟ فأنت أيضاً بلا أب.. هل

أنت سعيدة؟ على الأقل لديك هاروت يدعمك.. من سينقبل هذا الطفل؟ لا أحد من أولئك الجراء، الذين قاوموا جلدات هاروت دون اعتراف منهم بشيء، سيرعاك أو يرعى طفلك*.
أقنعت الفتاة، وأجهزت الطفل الوغد من بطنها، لكنها لم تكن على ما يرام بعدها. سواء استخدمت مخالب صقر، أو أقدام بطة لكشط الرحم، فهي لم تعقم أدواتها جيدًا. إما أنها غطستها في الفودكا لوقت قصير جدًا، أو أنها شربت الفودكا دون أن تعقم شيئًا. من ذا الذي يعرف كيف قامت ساتو بالأشياء ومهامها المتعددة؟ على أي حال، غطى هاروت النزيف المتدفق منها وأناهيت الغائبة عن الوعي في سجادة ليلاً، ووضعها على ظهر حصانه، وانطلق بعيدًا.

في هذا الوقت المتأخر من الليل أخرجت سيساك يدها وشدت لجام الحصان، في محاولة أن تدفع الحصان، الذي يزفر البخار من فمه، لمنع هاروت من الرحيل. *هناك كل أنواع الذئب والوحوش في الجبال والوديان، سيأكلونك! ستموت على أي حال، وأيضًا..*، تتم مع نفسه: *هي مجرد عاهرة، أليست كذلك؟ لا تقلقي عليّ، لم يلتهمني حيوان من قبل قط، ولن يحدث ذلك الآن*، طمأن نفسه بتجهم، بينما حمل السجادة في الليل، وأخذ الفتاة للعالم الخارجي ليخلصها من عارها. أخذها ملفوفة في تلك السجادة، وعاد بها بالطريقة نفسها. أبلغوه أن الوقت فات. *فات الأوان؟ لا تدع ذلك يزعجك*، حاولت نساء القرية طمأنة هاروت، *أن تولد بهذه الطريقة، فقدرها أن تموت ميتة مثل هذه. الطريق الذي أتى بك، لا بد أن يكون الطريق الذي يستردك*.

قالت ساتو لتبعد اللوم عن نفسها: *إنهن جميلات جدًا.. من الذي كان ليدعهن يحافظن على نقائهن؟*، ونبحت عند الشباب: *عار عليكم.. اللعنة عليكم جميعًا.. أنتم ضحايا أفعالكم*.

شعر أهل القرية بالأسى على ناخشون، *كيف تأتي تلك الفتيات من أمّ مثلها؟*.. حاول أوينز ربط السبب بالنتيجة، *ناخشون هي من تلام، بالطبع، يجب على المرء ألا يعيش حياة عفيفة طاهرة كهذه، كيف يستطيع المرء أن يكون نقيًا لهذا الحد؟ على الرب إذن أن يوازن الأشياء*.. ثم بدأ ثانية: *هل تعلمون أحفاد من كانوا؟ هل تعلمون أي صنف من الرجال كان أبوها؟ كان يهب أربعين شاة ليأكل الفقراء كل يوم. هل تعلمون أي صنف من الرجال كان خطيبها؟ كان يُعَلِّم أربعين طفلًا كيف يقرأون في اليوم. هل تعلمون من كان أخوها؟! أمها كانت قديسة، قديسة! وهي أيضًا! وأي كنجارو عظيم كانت تعدّه*، وواصل *أنتم لم تتذوقوا مثله من قبل قط*.. تخيل من استمعوا إليه أنه كان طبقًا من لحم الفراشات أو لبن الثعبان، لا يهم مطلقًا طالما كان عجائبيًا.

*ماذا حدث لذهب أبيها؟ ماذا جرى لعقل خطيبها؟ هل هناك أي من تلك الدماء تسري في عروقها؟ هل هذا إرث شخص كان لديه المال والعقل؟ كان المتحدث يشير إلى استجيك، التي كانت طلتها تجعل الصبية يشرقون بالبهجة، ويحيطون بها على الفور، ويتحدثون إليها بسعادة. كانت تتكلم مع أحدهم بعينيها، وإلى آخر بفمها، وحركات يديها تتوجه إلى ثالث، ووضعيتها ظهرها تتواصل مع رابع.. كانت تغرق في الاهتمام بكل تفاصيلها. *هم شباب.. ذلك ما يبدو عليه الشباب*.. حصل أوينز على ما أراد. جعل القرية بأكملها تتحدث معًا لأول مرة عن أول مرة ذاقوا فيها الكنجارو، والرهبنة التي كانت تسببها. لو علموا أنه لم يأكل قط أي كنجارو في حياته، ولا حتى يعرف شكلها، لكنه سمع عنها عبر رحلته في هذا المكان.

لم يكن الاتجاه الذي اتخذه صحيحًا، كان هناك سيد واحد في الحياة في تلك البقعة من العالم؛ الرياح، يمكنها أن تبتلع الشمس، وأن تسقط من السماء عاصفة عبر الجبال، تضرب برقًا من البطن الممزقة التي كانت تنتشر متساقطة في الليل، وتتسحق تحت أقدام المرء في الصباح. تأخذ

الأرض وقتها لتصبح دافئة في الربيع، وستتمو النباتات ببطء. كانوا في الصيف يغلون فعليًا تحت أشعة الشمس. وفي الخريف تحطمهم الرياح، ويزعجهم الثلج المبكر فيضغطهم قبالة الأرض. وعليهم الإبقاء على أنفسهم أحياء خلال رحلتهم، بأكل نبات *الأشنة* الذي ينمو على الصخور. أحيانًا تكون هناك ديدان أو حشرات فوق الطحالب، تسحق تحت أضرارهم، ويستمتعون بمصّ العصائر التي تنز بينما يمضغون النبات، لكن مرارته تجعل كل شيء باهتًا، نكهة الحشرات، كما شهيتهم للأكل.

كان والد ناخشون يقول دائمًا: *لو أن لدينا فقط بعض الكنجارو الذي اعتدت طهوه، يا طفلي..* قال هذا مرارًا، حتى إن أوينز أقنع نفسه بالأمر افتراضيًا، أنه *أكل* ذلك الكنجارو من قبل. على أي حال، وصلوا القرية مع الوقت، ومروا بالألم نفسه، وصاروا الآن عائلة. حكّت ناخشون الوعاء بالرمل والتراب، ثم غسلته بماء جار، وضعت على النار وملأته بالزيت. طقطق الزيت، وتناثرت قطرات منه هنا وهناك، مسببة سوادًا بالبقع التي سقطت عليها. رشت بعض الدقيق الأبيض عليه، وخبزته، وسوته، وحمزته، وقامت بتحليلته في الزيت، ثم كسرت بيضة عليه، وضربتها حتى صارت بيضاء، ثم نفشتها وصبتها في الدقيق. هسهست البيضة وانتخت في الحال، وجفلت بالسخونة. وقلبتة بهذه الطريقة وتلك، حتى احمر من الجانبين، ثم وضعت على الطاولة، *هاكم، استمتعوا..*.

أكلوه، وقالوا: *هو مثل الأومليت المعتاد، عدا أنه مخلوط بالدقيق*. علق أوينز: *لكن لا أحد منكم يعبده هنا، إنه مميز، وهو أخف، ولا يسبب آلامًا بالمعدة*. *حسنًا، نحن نضع مكونات أفضل فيه، نحن نصنعه بالعسل. وسواء استخدمت دقيقًا أو خراء كلب، في النهاية هو ليس أومليت على أي حال، وهو ليس شيئًا أصيلًا*.

لا شيء في العالم أصيل.. نحن من نقرر ما هو أصيل، أو أننا نقول عن شيء أنه أصيل. *أوه، أوينز، أوينز.. كانت الغربان لتقتلع عينيك من زمن بعيد لو لم يكن بسبب لسانك الفضي، الذي اعتاد الكذب.. إذا أمكنك الادعاء بأن أطفالها أرم، بعدها يكون سهلًا أن تعتقد أن الأومليت عبارة عن كنجارو. ما الذي يمكن قوله عن ذلك؟*

لم تكن السحلية الخضراء اللامعة لتظهر نفسها إذا لم تنزلق أسفل ظهر الحُميض الأحمر المقوى، قاذفًا ببذوره المجففة، لكنها فعليًا اقتربت ذلك الخطأ، انزلقت للأسفل إلى صخرة، وعندما شعرت بالكف الضخم العظمي للألماني الذي اقترب بسرعة، امتص جسمها المرن المرفرف سريعًا في شق بالحجر، تاركًا الألماني مع ألم كفه من صفة السطح الخشن. في البداية ابتسم بمرح، مختلسًا النظر عبر المسافة بين أصابعه، دون رفع يده عن الصخرة. وما إن رأى أن أصابعه والحجر التصقا بالسحلية، بدأ يلوح بيديه في الهواء، كما لو كان يحاول دفع الألم والورم. واسى نفسه، *لا بأس، كان شيئًا صغيرًا، بالكاد في حجم مضغة بالفم..*، واندفع إلى البحيرة؛ ليبرد قدميه المحترقين، *أوه، أيها الشمس، ما زلت تشرقين لامعة، اذهبي للنوم لدقيقتين، تريد الصحراوات أن تحيا هي الأخرى. رمالها المحترقة تشتعل، وأنا أسير فوقها..*. تطلع أملاً بينما اشتعلت قدمه تحت الشمس وقدم التماسه إليها. سيسير بضعة خطوات، ثم يعود مسرعًا للبحيرة وينقع قدميه فيها، وعلى وجهه تعبير مبارك قبل معاودة السير على الشاطئ.. يصبح الرمل الأبيض الساخن والفقاقيع تحت قدميه كثيرة جدًا، ويعود مسرعًا للبحيرة.. كانت هناك أيام كان فيها أكثر حظًا، أحيانًا يجد قطعة من السمك المرمّل على الشاطئ، ممزقة بنقرات الغربان، كان يوجهها في الهواء، ويطلق

صرخات ابتهاج، عارضًا إياها على أصدقائه. لكن الغربان اليوم لا بد أنها كانت جائعة عندما جاءت استهلكت السمك تمامًا، أو كان الموج ضعيفًا وغير قادر على طرح محتويات قاع البحيرة على الشاطئ. كان اللون الأصفر المشمس في كل مكان، حتى حيث كانت الشمس يفترض بها أن تكون زرقاء والتربة سوداء.

كان رجل الشرطة *فاردانيان، ومساعدته *بوغوس*، و*سيرجو* السائق مختبئين في السيارة، الابتسامة عالقة على شفاههم مستمتعين بالمحن التي يعاني منها سجينهم الألماني. *ناد عليه* نادى السائق، *ناد عليه ليأتي هنا قبل أن تأكله الضفادع*. أحنى بوغوس إصبعين في كفه، ورفع إصبعه الكبير والخنصر إلى فمه، ثم لوى لسانه ورنت الصفارة عاليًا في الهواء. فهم الألماني معنى الصفارة بشكل صحيح. أمسك برأسه المحمرة بيد، وانتزع الورقة التي شكلها من شجيرة زهر الكاميليا التي استقرت بعد أن ضربت الرياح رأسه. اندفع مسرعًا إليهم. ارتطم إصبع قدمه بصخرة ونزف، فكر مع نفسه أن هذه البلاد خلقت بطريقة مختلفة كلية عن البلدان الأخرى؛ خلقت العظام أولاً، ثم بقية الأنسجة.. أمكنه سماع نداء الماء تحت الأرض وهو يتدفق بين جذور الصخور ويحك فيها. كانت تهديدات البرد كافية وحدها لتبرّد الصخور البيضاء. زحف على يديه ونظر بين الصخور، مقتنعًا أنه في أي لحظة سيكون قادرًا على ملامسة المياه وهي تחדش الصخور أو آتياً عبر سحلية أخرى، وربما حتى ثعبان، إذا ما كان محظوظًا.

سار وهو يغلي تحت حرارة الشمس، ومد *هانز* يديه لجيب الصديري وتحسس حوله، شاعرًا بخشونة الورقة، وواصل مقاومته للشمس بابتسامة سعادة. كانت هناك لحظات – في الأغلب في الليل – حين كان يخرج الصورة التي لديه في جيب الصديري؛ صورته مع طفليه وامرأة بعيون متعبة، يرفعها لشفتيه بابتسامة محرّجة، دون اعتبار لمن تنتهي إليه قبلته مستقبلاً في ظلام الليل. كانت صورة عائلته، استطاع إنقاذها من العديد من المساومات، والضرب، والحرمان؛ العائلة التي كانت لديه خلال سنوات الحرب، وأسرت معه، وتعاركت بعناد مع شمس جبال القوقاز والصخور الأرمينية.

عندما شعر بالبرد، باللمسة الناعمة على ساقه التي كانت تحترق على صخرة، نظر للأسفل فرأى ضفدعة فوق قدمه وتقجر قلبه بالفرح. كانت الضفدعة بمثابة مواساة له في تلك اللحظة كصلاة في مأزق لا فرار منه. قرّب يديه منها وهو جاثم بحرص، ثم وقف بنشوة الانتصار ممسكًا بها بين ساقيه مظهرًا ضحيته لأصدقائه. كان أسرى الحرب واقفين عند قاعدة الجبل، وربما لم يحظوا حتى بنظرة واضحة على ما كان ممسكًا به، لكنهم أدركوا أنه كان طعامًا، واستجابوا للأمر بالكثير من الهتاف. بدأ أحدهم حتى في قطف الأغصان الجافة وتكسيورها لوضعها في النار التي بدأ في إشعالها.

فريتز.. فريتز.. نادى سيرجو عليه وأومأ له بإصبعه. غير السجين اتجاهه واقترب. انتزع السائق القبعة الورقية من على رأسه ووضعها بعيدًا، وفرد الورقة، ثم ناوله ورقة جريدة أخرى، وقال للألماني بسخرية *البرافدا*: *هاك، اصنع قبعة روسية لنفسك*، وهو يهز ورقة الجريدة بالأرمينية، وقربها أمام عينيه. برر أفعاله أمام رجل الشرطة الذي نظر إليه باندهاش، *دعنا نفعل شيئًا لتمضية الوقت، على الأقل انظر لبعض تلك الصور*. وقف السجين هناك للحظة، مشيرًا بإصبعه في فمه المفتوح ثم حك يديه بعدها على صدره. *ماذا يقول؟ هل هو جائع؟*. قال فاردانيان ناظرًا للرجل باندهاش: *بربك يا رجل، انظر هناك، بحر بأكمله للشرب!* نظر السجين مندهشًا

للبحيرة، ثم لليد التي تشير إليها. شرح رجل الشرطة: *المياه في بلدهم مالحة، بنظرة خاطفة على رفاقه، واغترف بيديه شربة ماء، مدها في اتجاه البحيرة، ثم رفعها في الهواء إلى فمه، شارحاً للسجين أنه يمكنه شرب تلك المياه.

هل فهم السجين أن مياه البحيرة عذبة، أم أنه اعتقد أنهم يسخرون منه؟ على أي حال نظر إلى الصخور من حوله برعب، وتخيل أنه سيكون عليه أن يسير فوقها مرة أخرى للوصول للبحيرة، وبعدها بدا أنه سيتجاوز عطشه سريعاً. التقط رجل الشرطة كوباً من السيارة، وسار باتجاه البحيرة متخوفاً من الصخور على الشاطئ تحت باطن حذائه الجديد. سار داخل البحيرة حتى المدى الذي سمح به حذائه، ودلى الكوب المعدني في الماء وشرب منه للتوضيح، ثم ملأه ثانية وقدمه للسجين. وما إن شرب السجين المندھش، دبّ رجل الشرطة قدمه في الأرض ليخلصها من قطعة من الطحالب. قال له: *عد للعمل الآن* ملتقطاً الكوب الذي قدمه له، وناظرًا بحزن على الضفدع الذي ما زال عالقاً بساقه.

لم يستطع الألمان تصديق ما رأوه بأنفسهم حولهم. الموجات العظيمة البيضاء مثل ندبة قديمة، كانت تصطم ببعضها، بينما تتدرج إلى الأبد المنظور. كانت الصخور خالدة ولا تحتل، مدفوعة بعمق إلى قلب التربة مثل إهانة؛ كثيفة، غير قادرة على أن تبتلع.. حجارة لا تحصى، بقرون ملتصقة بالخارج في أجزاء من شفاها المتشققة، والسحالي تنزلق منها للداخل وللخارج، خالقة الإيهام بأن الصخور تخرج أسننها الملتصقة بها. والتصقت البذور الحمراء لنبات الحميض بسطح الألواح. نادى رجل الشرطة من تحت: *شنيل، شنيل*، ولم يجروا أسرى الحرب على مجرد الجلوس، أو أن يأخذوا استراحة، أو يحبسوا أنفاسهم. كان بوغوس مستاءً وقال: *لماذا نحن في الصحراء على أي حال؟ ألم تكن هناك أي أرض أخرى تحتاج للتنظيف؟*، *الأوامر تقضي بأن ننظف هذه الأرض*. غمغم السائق: *ألم تقل الأوامر أننا يجب أن نقتلع ذلك الجبل؟*، *سنفعل إذا كان علينا ذلك*.

اخترقتهم أشعة الشمس بعدائية، جعلتهم ينسون كل الأعمال الطيبة التي قدمتها لهم حتى الآن. وضع السائق كفيه الكبيرين على رأسه ليحميها، وجرى إلى العربية. لم يطل رجل الشرطة البقاء أيضاً، بحث كلاهما عن الحماية في ظل العربية، ونزلوا منها بين الحين والآخر فقط، بنظرة خاطفة على السجناء، ويهتقون بالكلمة التي ينطقونها بنبرة تهديد، شنيل. صارت الشمس غير محتملة، وحتى حب المرء لوطنه لم يعد يساعده على ابتلاع الهواء الساخن الثقيل. فاقترح سيرجو وهو يربط أطراف منديله المبلل على قمة رأسه مثل إكليل، *إذا كنت لتسألني، علينا أن نساعدكم لننتهي سريعاً، ونذهب*. *نساعدكم؟ هذه ليست وظيفتنا.. نحن لن نعفيهم من حقيقة أنهم سجناء، أنفعل؟*.

أخرج بوجوس خريطة من جيبه، فردها على الأرض، وبدأ يتفحصها بتشكك، ومدد رقبته باتجاهها، *هل من الجائز أن نكون أسأنا فهم التعليمات؟*، قال فاردنيان بازدراء: *ضع ذلك بعيداً، لدينا كل شيء ينمو هنا، هل تظن أننا نحتاج لخرائط لنعرف أين تم تكليفنا بمهمتنا؟*

امتزجت صرخات السجناء بالصخور المتدرجة، وقفزوا خارج الظلال ليروا ما الذي جرى. عندها سقط أحدهم للأسفل كجلمود متدرج وارتطم بعجلات العربية. سأل السائق بخوف: *هل مات؟*، تمتم فاردنيان: *لا أدري.. أظن ذلك..*، ونظر إلى الأسرى الواقفين بين الصخور البيضاء على جانبي النل. أوما بيديه، *انزل من هناك، هذا يكفي لليوم..*. سار السائق للعربية، *سأحرك العربية قليلاً..*، واقترح فاردنيان مشيراً إلى الجثمان برأسه، *علينا أن ندفن هذا الرجل

على ما أظن*، نظر بوجوس إلى الصخور من حولهم، *كيف؟ هل ترى حفنة يد حتى من التربة؟*
*، *يمكننا تغطيته بالحجارة*.

أشار فاردينان إلى السجناء برأسه، *قل لهم أن يقوموا بالأمر*، أو ما السائق بذراعيه وساقيه
شارحًا لهم أن عليهم دفنه تحت كومة من الحجارة. وبدأ لعدم تيقنه أنهم فهموا- في التقاط بعض
الحجارة من على الأرض، *وإلا ستحظى الذئاب بوليمة الليلة من رفاتهم* وهددهم بالأرمينية،
مصدومًا بما حدث. ساروا بخجل، وتحسس أحدهم نبض رفيقه الذي سقط وهز رأسه، بتعبير مؤلم
على وجهه. وجدوا قليلًا من الحجارة لا يبعد كثيرًا عن موضع الجثمان وجروه إلى هناك،
ودرجوه داخل الكومة، مرتجفين، وبدأوا في التقاط بعض الحجارة الصغيرة من الأرض
ووضعوها عليه. أشار فاردينان إلى العربة وقال: *شنيل*، *وَجِر السجناء أنفسهم إلى هناك، متكئين
على الإطار الحديدي لصندوق السيارة كي يسحبوا أنفسهم للسطح.

في اليوم التالي، عندما عادوا ليكملوا عملهم، تحالفت الرياح مع الشمس حتى صار مستحيلًا التنفس
في الهواء الثقيل اللزج، وبدأ أن الرياح تنتزع من فم المرء. كانوا مهتاجين، يهمسون بشيء ما
لأنفسهم، ومزقت الرياح كلماتهم – وكانت فعليًا غير مفهومة بلغتهم الأجنبية – إلى مزق لا يُسبر
غورها. لا يمكن للمرء فهم أي شيء في وجود الرياح، إلى جانب تبدد الكلمات هنا وهناك،
وتضيف الرياح ضجيجها أيضًا لكل الأصوات. ومهما أجهد رجل الشرطة أذنيه في الإنصات، لم
يستطع سماع أي شيء من شتات الحديد شبه الغارق الذي يصله. *ماذا بهم؟ ألم تعطمهم أي فودكا،
هل فعلت؟* كان مستاء، وقد ألصق فمه في أذن مساعده وهو يتكلم، ليكون متأكدًا أن الرياح لن
تذهب بكلماته بعيدًا. صرخ مساعده في أذنه، *من أين لي بالفودكا؟ لكننا نشرب منها الآن إذا كان
لدي أي منها*. قال فاردينان محاولاً حماية كلماته من تشتيت الريح لها بكوفه هذه المرة: *إذن
لماذا هم مهتاجون؟*، *الجثة التي دفناها بالأمس اختفت، اختفت.. لا بد أن ذلك سبب هياجهم*.
هتف فاردينان صارحًا في الريح: *ماذا تعني، اختفت؟* واندفع ليتحقق من الأمر. هز السائق رأسه
بحزن، *حسنًا، ما الذي كنت تتوقعه؟ عندما تجد الذئاب شيئًا لتأكله، فإنها تجره بعيدًا، ألا تفعل؟*
عمل السجناء لأكثر من شهر لتنظيف مكان الصخور وكشف التربة تحتها، لكن الرياح كانت تعيد
الحجارة في الليل إلى المكان الذي نظفوه أثناء النهار، أو أن الصخور تدرج نفسها إلى المكان
وتحتل حدودًا جديدة، كاشفة جذور الطحالب، التي تغطيها وأعشاش الحشرات، لتعرضها للشمس
لتحترق في اليوم التالي. وعندما يصلون، يشتعل غضبهم عند رؤيتهم هرمًا بأكمله قد تشكل من
صخور جديدة، بينما كان هرم واحد فقط موجودًا في اليوم السابق.. ويبدأ كل شيء من جديد مرة
أخرى؛ بلا نهاية، ودون هدنة، مثل عدو متواصل لفأر بلا هدف على عجلة.
همس بوجوس ذات يوم في أذن السائق: *اسمع، هل لاحظت أي تغيير في أولئك السجناء؟*، *لا،
ماذا تقصد؟*

أظن أن ذلك هناك أصبح أكثر سمنة الآن. فهقه سيرجو، *بربك.. كيف، من الطعام الذي تمنحه
له..* *أقسم.. انظر لهذا الشاب؛ أصابعه تبدو أكثر سمكًا، وكذلك رقبته، وإلا فإنهم سيسقطون
فرائس للذئاب في يومهم الأول، مثلما حدث مع السجين الآخر*.
خرج فاردينان من السيارة وقال متجهًا إليهم: *من أين تأتون بالطاقة لتثرتوا في هذه الحرارة؟*.
قال السائق ساخرًا: *لو كنت سمعت ما قاله صديقك*.

ماذا يقول؟، *هو يقول أننا أعطينا هؤلاء السجناء الكثير من *الخاش* ولحم الشواء حتى إنهم

ازدادوا وزناً*. شاركهم فارديان المرح، *بالطبع زاد وزنهم، وسيكون لهم كرش من شرب البيرة قريباً*. سار للأمام ونادى على رفاقه دون التقاف، *الشاطئ فيه رمال أكثر على الجانب الآخر. راقبهم، سأذهب لأعوم حيث إن الرياح قد سكنت قليلاً*. وغادر وهو يفك أزرار قميصه أثناء سيره. جلس مساعده في ظل السيارة في مسحة بها عشب متناثر، وقال متذمراً: *من نحن، خدم لك؟ سأخذ غفوة، ذلك الفتى لم يكن على ما يرام الليلة الماضية، ولم أحظ بأي قدر من النوم*. بالكاد مرت عشرون دقيقة عندما عاد فارديان مسرعاً في زعر، *لن تصدقوا أبداً ماذا وجدت!، سخر المساعد من رئيسه مستنداً على مرفقيه وهو لا يزال ناعساً: *جرة من الذهب؟*، أعلن فارديان بصرخة: *وجدت مقبرة!*

سخر سرجيو مرة أخرى: *لكن لم أنت مرعوب؟ هذه أرض قديمة.. من المحتمل أن تصادف فيها كل أنواع المقابر وشواهد القبور إذا حفرت قليلاً في أي مكان*. *لكن هذه ليست مقبرة قديمة، أتري؟ هذه مقبرة جديدة، إنها حديثة*.

كيف عرفت؟ *أنا حتى أعرف أين صنع شاهد القبر.. إنه من صنع *هيراك* من منطقة جافار، هو الوحيد الذي يصنع صلباناً حجرية في هذه الأنحاء*.

إذن ستضع هيراك في مازق الآن؟ لقد تم نفي العديد والعديد من الرهبان.. كل ما تبقى لدينا هو صلبان هيراك الحجرية، وأنت ستعمل على التأكد من أن نفقدها أيضاً، قالها بازدارء.

هذا لا يتعلق ب هيراك، نظر فارديان للمسألة كإهانة، *ليس هذا ما أقوله، إذا كانت هذه مقبرة جديدة، إذن هناك أناس يعيشون في الجوار. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا نعذب أنفسنا في هذه الشمس والحرارة المشتعلة؟*

وقف المساعد الآن وسط العشب، *لا يمكن.. من يمكنه العيش سرّاً بعيداً عن السلطات السوفييتية؟ نحن ولدنا وترعرعنا في تلك الأنحاء، ألم نكن لنعرف بوجودهم؟ ربما أنه قبر لحالة انتحار أو شيء ما آخر..*.

جرت العادة أن تكون مقابر المنتحرين منفصلة عن بقية المقابر في الأيام الخوالي، حتى إنهم يدفنونهم ووجوههم ناحية الأرض.. *رسم سيرجو السائق علامة الصليب في ذهنه وفكر *الرب يحرم حدوث مثل هذه الأشياء*..*

حسناً ذلك ما أقوله لكم، لا بد أن شخصاً جلبهم ودفنهم سرّاً.. حتى تعوي الذئاب عند قبورهم.
لكن إذا بصق شخص على السماوات وتخلّى عن الحياة التي وهبت له، هل كنت لتتحت صليباً على شاهد قبره؟ التفكير في المقبرة السرية جعله يستدير للخلف وينظر تجاهها بحيرة. تحولت المقبرة التي اكتشفها إلى وسواس تملك منه، طارده في كل مكان مثل ظله، بل إنها كانت أكثر حتى من ظل؛ لأن الظلال تختفي مع غروب الشمس، تتخلص منها على الأقل في الليل، لكن المقبرة طارده ليل نهار، كانت معه في عقله. بين كل تلك الصخور، لماذا أثاره ذلك الحجر الوحيد؟ هل لأن له شكل محدد وملامح؟ ألم يفهم أن الزمن نفسه تم تشويبه، وما الذي يمثله الشكل ذاته؟ حدوداً، أم قفصاً؟ تلك الصخور الأبدية، والزمن المتحجر الذي مثلته الجبال، ألا تستحق الاهتمام نفسه مثل هذه الصخرة الصغيرة التي مُنحت تأويلاً خاصاً؟ لم يكن لديه إجابة عن السؤال، وانطلق إلى شاهد القبر الذي شيد مثل حافز في جانب الجبل. ما الذي ساقه لهذه المقبرة؟ هل هو سحر ملامسة نوع خاص من العزلة؟ هل كان فضولاً مجرداً؟ هل كان سحر الصليب الحجري؟ أم كان شعوراً باهتمام مهني بحت، بالتفكير أن شيئاً ما قد حدث في المنطقة دون مراقبته أو علمه؟

لم يعيش أحد في تلك الأماكن لمئات السنين، متى وصلت إلى هنا؟ متى مت؟ تحدث للصليب الحجري في أفكاره. كان يجلب الأسرى إلى هناك ويأمرهم بتنظيف حدود الصخور؛ كان يصرخ فيهم: *شنيل* عاليًا عدة مرات، ثم يذهب لفحص شاهد القبر. وكان يقول سائرًا حول الحجر: *من أنت يا رفيقي الطيب؟ متى عشت حياتك؟ متى مت؟ هل أنت امرأة أم رجل؟ كبير أم طفل؟ لا سنوات، لا صور.. ما الذي يفترض بي أن أفعل معك؟*. كان يفحص الصليب الحجري من زوايا متعددة، *عظام من تزداد بياضًا تحت ثقل وزنك أيها الحجر المبارك؟* أطلق رفاقه الدعابات حوله، بمجرد أن استدار لينطلق إلى الحجر، كان مساعده ينكر سيرجو في ضلوعه ويقول: *انطلق ليقابل عشيقته* ويضحك صامتًا. كان سيرجو ينادي عليه مبتسمًا: *فاردنيان، متى ستتزوجون حتى ننهي من هذه المسألة؟*، لكن فاردنيان لم تكن له شهية لذلك النوع من الدعابة ولم يعرهم أي اهتمام. كان فضوله يقتله.

حتى إنهم ذهبوا على طول الطريق إلى بايازيت ووجدوا منزل هيراك، وكان النحات قد رتب كل أدواته بعناية شديدة تحت جدار فيه، ومات قبلها بشهر. عاد فاردنيان غير راضٍ. *من أنت، يا للخواء الذي أعانيه، كيف أمكنك أن توجد دوني؟* كان ليركع بالقرب من الصليب الحجري، ويضع كفه بلا حول على اللوح. حتى إنه جاء هنا في الظلام عدة مرات – بسرية دون علم أحد متجاهلاً قوافل ابن أوى المتسكعة في الجوار – لأنه كان خائفًا من قضاء وقت طويل هنا في النهار، ما يعني وجود شهود، ورفاقه، الذين سينقلون الأخبار على النماذج الحكومية ذات الصلة، وسيتهم باحترام الصليب، الرمز الديني المحرم. فحص الظل الذي ألقاه الحجر في أوقات مختلفة من النهار، والشقوق على اللوح، والطحالب التي غطت جزءًا منه، ولم يكن لأي من هذا معنى بالنسبة له. لا شيء خفف من معاناته. الشيء الوحيد الذي افترض صلة إنسانية به كان النموذج الطيني للوعاء المقلوب في زاوية الشاهد اليمنى، لكن ما الذي يمكن أن يخبره به طين أسود محروق؟

على مدى كل الأيام التالية بلا استثناء، كان فاردنيان يُنصّب السجناء للعمل بمجرد وصولهم بالصراخ: *شنيل*، وما إن يلاحظ أن رفاقه قد غفوا من الحرارة في ظل العربة، ينطلق سرًا ليلقي نظرة على شاهد القبر. كان هذا مصدر تسلية للسائق سيرجو، بينما كان موضوعًا يثير اهتمام بوجوس؛ *هل فقد عقله؟*

في ذلك اليوم بالذات، عاد فاردنيان إلى رفاقه، وجلس بجوارهم، محدقًا في ذعر. ضحك السائق وقال: *ابتسم، إنها وظيفة مسلية أن تكون ضابط شرطة، أحذكم يا شباب رأى شاهد قبر، والثاني تخيل أن السجناء يزدادون وزنًا*.

قام سيرجو -المتكاسل من شدة الحرارة- بجلب لفة من العربة وفتحها، وهتف: *لدي غداء*، ووضع جريدة على الأرض ورص طعامه عليها. هتف فاردنيان فجأة: *أعتقد ذلك الآن، إنهم ازدادوا وزنًا، لا بد أن هناك من يطعمهم سرًا. هناك أناس يعيشون في هذه الأماكن، هناك أناس..*، تتأعب سيرجو ساخرًا، *حسنًا، عليك أن تتحرى الأمر، خاصة وأنت من يملك مسدسًا*. نكز فاردنيان مساعده الغافي، *بوجوس لديه مسدس أيضًا.. صحيح يا بوجوس؟ سأعطيك مسدسًا أيضًا، ويكون لديكم مسدسان، ستبقى هنا وتراقب الأشياء*.

هيا، أخبرتك، طفلي مريض ولا يجعلني أنام للحظة في الليل..، *لا تقلق، سأذهب لبيتك لأطمئن على عائلتك. وسأرتب لزيارة طبيب وأشتري بعض الحلوى لطفلك، سأخبرهم ألا يتوقعوا عودتك

الليلة، وسنعود لك في الصباح*.

حقاً؟ حسناً، لست في مزاج يسمح بدعابة مثل هذه.. دعني أغفو قليلاً. عليّ أن أنام في الرابعة صباحاً وأقوم في السادسة. *أنا لا أمزح، هذا ما يريدُه الحزب*. *إذا كانت هذه رغبة الحزب، يمكنك البقاء والقيام بالأمر*. *ماذا؟ سأرفع تقريراً إلى المراقبين، سأخبرهم جميعاً أنك لم تنفذ أوامر الحزب*.

صرخ المساعد من مكان رقوده، وجلس منتصباً، وقال مرعوباً: *فاردنيان، يبدو أنك نسيت أنه كان هناك ذئب في تلك الأماكن جرت الجثة بعيداً. من الذي يهتم بسجين؟ فقد كان أحد رجال هتلر، لكن أنا أب لثلاثة أطفال!*

أرض الآباء تتطلب تفسيراً لما يجري؟ عليك البقاء هنا واكتشاف كيف يزداد السجناء وزناً.
حسناً، يمكننا ترك السجناء أيضاً.. أقصد، لماذا علينا أن نسوقهم عائدين وأتين كل يوم؟ ذلك سيوفر بعض العناية وألا يبقى بوجوس وحيداً هنا. لم يوافق فاردنيان، *لا يمكنني السماح بذلك، عليّ التوقيع على وثائق لأخذهم إلى هنا، وعلى وثائق أخرى لإعادتهم*.
التفت سيرجو إلى بوجوس وشجعه: *لا تخف، لا توجد حيوانات كبيرة هنا، فقط دببة وذئب.. أوه، وإليك نصيحة، لا تنتظر الذئب لتأكلك، كلهم أنت بداية..*. ما أن ذكر كلمة *أكل* أنهى سيرجو تغليف غدائه بقوة ليكون واثقاً أن لا شيء سيسقط من الساندوتش، وقضم فيه بشهية كبيرة، متظاهراً بأنه ذئب جائع. انضم إليه رجل الشرطة، معداً الساندوتشات من المخمل والبطاطس المسلوقة. واقترح سيرجو مشيراً للسجناء: *يجب ألا نعطيهم أي طعام؟ لا يمكننا إنهاء كل هذا، ولا يمكننا العودة به. إذا لم نكمل أكل البيض فسيفسد*. قال فاردنيان غاضباً، ساحباً المخمل والبيض المسلوقة ناحيته: *لا سندوتشات.. دعهم يعملون ويدفعون ثمن خطايا هتلر، أحب هذا الطعام، وسأنهيه*.

وقف السائق على قدميه، ناظراً بتعاطف إلى السجناء، وبدا مذهولاً، ثم جلس مرة أخرى فجأة، ثم وقف على قدميه ثانية، ونظر بعيداً مرة أخرى، *أو ه فاردنيان، فاردنيان، هناك أحد يلوح من الكهف!*. وضع فاردنيان يده على سلاحه وقام على قدميه فوراً، *حقاً؟*، وصرخ: *شنيل، شنيل! انزلوا إلى هنا!*. وتقريباً دخل في حالة إغماء. كان السجناء قد اختفوا، اختفوا. هكذا اضطروا لجلب كلاب الصيد.

وقف السمكري الأحذب أمام باب ساتو عند منتصف الظهيرة بالضبط، حين تمددت أشعة الشمس بعمق لتختبر قلب الطحالب الرطبة في قاع الوادي. وكان لديها العديد من الأطباق ذات الفتحات تحتاج لتببيضها، حتى إن الفكرة لم تخطر على بالها – حتى الآن، لم يزحف ثعبان واحد، ولم تندفع دجاجة واحدة بعيداً عن حدود هذه القرية – كيف وصل هذا الغريب إلى هنا؟ ما إن أخرج الأحذب أدواته فوق الصخور وقد لهبتها الشمس، وقفت ساتو عند بؤرة النبع، واضعة ذراعيها حول خصرها، وصرخت في نساء القرية ليجلبن أطباقهن. وعندما تجمع العديد من النساء، أدركن أن الغريب تكلم بلغة لا هي تركية ولا عربية ولا فارسية. وشعرن بالخوف؛ لأنه لا فكرة لديهن عن سبب ظهوره. وبلغت هاروت الأنباء.

استنتجت ساتو *لا بد أنه روسي*، وأراحها وصول هاروت. كان السمكري مستثاراً *رو، رو، رو...*، نادى هاروت على فازجين: *أنت قابلت جنراً روسياً في رحلتك إلى هنا، وقلت إنك تعرف كيف تضحك بالروسية، هل يمكنك التحدث بالروسية؟*. *بالطبع أعرف!*. *حسناً، تعال واسأل

هذا الرجل كم سيأخذ ليكسو فتحات أطباقنا بالقصدير*.
هتف فازجين من وسط حديقته: *لا يمكنني، أنا أعرف فقط القليل من الكلمات*. تقدمت النساء
للأمم وللخلف مع أطباقهن، ضاحكات، يطلقن النكات وينكز بعضهن بعضاً مع كل نكتة، ويجمعن
أدواتهن بالقرب من السمكري. انكب الروسي على عمله، وفكرت ساتو أنه من الجيد تقديم وجبة
له، *لديّ أهم شيء؛ فودكا!* بداية فكرت أن تعد له بعض البيض الأومليت، لكنها غيرت رأيها،
هذا الرجل ضيف من بلد آخر، ستذبح إحدى دواجنها.

أعدت ديكها الصاخب في طبق لذيذ مع الأرز، وجلست لتأكل معه هو وهاروت. لم يكن هناك
توست، وضعت بعض الأرز، وهو لا يزال مقلّياً في الزيت أمامه. ظل هاروت يصب جرعة تلو
الأخرى من الفودكا. شعر كلاهما بخوف داخلي، من كان هذا السمكري؟ وبعد الوجبة دخل
السمكري في غفوة، بينما أنهى هاروت بعض الأعمال الروتينية واستعد لأخذ السمكري للعالم
الخارجي، *لا بد أنه صعب عليك حمل تلك الأدوات فوق ظهرك الأحدث، سأخذك في عربتي*
قال ذلك مستخدماً الكلمات جزئياً، وإيماءات نشطة بيديه وقدميه جزئياً. ومنحته ساتو نظرة مؤكدة
على كلمات هاروت وذهبت لمهامها الخاصة حتى جاءت عربة التسوق.

وقفت العربة عند غروب الشمس أمام بابها. انتظر حتى رتب أدواته بدقة، ثم صحبه إلى خارج
القرية. لم يقتله. هو ببساطة قيد يديه وساقيه ورماه في بئر حقل البطاطا. ظل هاروت يؤجل رحلته
التالية للعالم الخارجي.

جمعت ساتو بيضها ولم تدر ماذا تفعل به. أمسكت ببعض الدجاجات وكانت تنزع ريشها من البطن
حتى تبرد أجسامها وتشعر بدفء البيض الذي تضعه، محفزة فيها غريزة طبيعية للتكاثر. عندها
فقط اندفع الأطفال صاخبين إلى بيتها، يلهثون، *ساتو.. ساتو، تعالي بسرعة، فارسو تترنج، ربما
كانت تحتضر!* لم توقف ما كانت تقوم به؛ لأنها رأت فارسو للتو تستند إلى جدار حجري،
وقدماها متباعدان بينما تنفث دخان غليونها. أدارت رأسها تجاه الأطفال ببساطة، ورأت ديكاً وسط
الحديقة وقد تسلق رأس دجاجة وضغطه على الأرض، ناقرًا فيه. راقبتهم حتى فرد الديك جناحيه
وضرب الهواء بريشه، ثم انطلق إلى طائر آخر. نظرت بهدوء إلى الأطفال وقد نفذ صبرهم،
مطلقة سراح الدجاجة التي كانت تقرقر في ذراعيها، من مصدر عالٍ بلا رحمة، مثل قمة جبل بعد
ذوبانه في الصيف، وحركت يديها لتخلصها من الريش الذي علق بها. في النهاية، فركت يديها
بروية بسبب التراجع بالتناقض مع وجهها المليء بالبثور - وعلى بطنها، *لا بأس أيها الأطفال*
قالت وهي تنن أثناء تحريك ركبتها، *فارسو تجاوزت التسعين من عمرها، وتقرب من عامها
المائة، الموت هو الخيار الأفضل لها الآن*.

*لكن الحكاية هي لم تنته بعد! ابن الملك يواجه جبلاً شاهقاً الآن. هناك لوح في جيب صديرتها
سيتحول إلى مرآة عندما يرميه، ولديه مشط سيتحول إلى غابة كثيفة عندما يرميه، كذلك لديه
سيف، سيف سحري يمكنه استخدامه ليشطر الجبل إلى نصفين، لكنه في انتظار وصول حصانه
حتى يناقشوا الأمر معاً.. لا يمكن لـ فارسو أن تموت الآن!* *حقاً؟ لكن أين الحصان؟* *ذهب
ليشرب، لكنه تاه في الشجيرات الشائكة، وعلى فارسو أن تنقذه!*

أشفق على الحصان الذي اعتمد على فارسو لتنقذه من الأحرار! أبقت فارسو بحكايتها
البسيطة المطولة- على خيال القرية منفتحة للعديد من السنوات.. تقريباً لعمر بأكمله!
أتساءل ماذا سيحدث في النهاية قال الناس بعضهم لبعض، *ماذا تظن أنه سيحدث؟ هل سيقطع

الصبي رأس الوحش؟* *لكن العديد من الحكايات تنتهي بهذه الطريقة، لا يوجد جديد في ذلك.*
إن لماذا لا يحدث الشيء ذاته في هذه الحكاية؟ أليست كل الحكايات واحدة؟ *لو كانت هذه مثل
كل الحكايات كانت لتنتهي الآن، هي حكاية مختلفة*.

عندما كان الأطفال، أو أحد ما في البيت يتأخر في العودة من مهمة ما، كانت الأمهات تقلق،
أتساءل ما الذي جرى له؟ هل هذا مثل ما جرى مع الحصان في حكاية فارسو؟ وكلما رأوها في
القرية كانوا يطلقون الدعابات؛ *فارسو ماذا حدث لابن الملك؟ هل ما زال يرتحل؟* كانت تؤكد
لهم، نافثة الدخان من غليونها في الهواء، وتتفحص السحابة التي خلفتها عن قرب *نعم، هو يفعل*.
*بربك.. لأمكنه أن يستغل كل هذا الوقت ليسيطر على مملكة، ويؤسس مملكة أخرى، ويتزوج،
وينجب عشرة أطفال، ويقطع رأس التنين..* كانت فارسو تمزح قائلة: *لكن لماذا عليه أن يفعل
كل شيء على طريقته؟ لماذا يفعل ما تريده أنت؟ يمكنكم أن تفعلوا كل ذلك بأنفسكم، إذا كان ذلك
ما ترغبون فيه. هو رجل حر، يمكنه الذهاب إلى حيث يريد وفعل ما يريد* *نعم أختاه، لكن
الطرق في هذه الحكاية طالت وتمددت كثيرًا.. هل يمكن لحكاية أن تبقى كل هذا الوقت؟ بينما
شارفت على النهاية؟* *آه* كانت تلوح بيديها بازدراء *أذهبوا.. ستأتي النهاية حتى لو كنا غير
موجودين لنراها* *أوه، فارسو، فارسو.. تختلق كل أنواع الأكاذيب*.
ولم لا؟ لماذا لا يمكنني خلط الأكاذيب الخاصة بي في هذه الحياة الخادعة؟ ماذا سيغير ذلك في
الأمر؟*

حتى قبل أن تدخل، التقطت ساتو رائحة الموت في مدخل الباب، جعدت أنفها عند شعورها
بالمراة التي التصقت بحلقها، وسعلت. رفت عينيها لتعتاد على الظلام في الداخل، بعد ضوء
الشمس الساطع في الخارج، ثم همست: *أسرعوا ونادوا على هاروت*.
أخذ رمانه من صندوق على العشب، أعطى واحدة منها لـ ناخشون كهدية في المرة الأخيرة التي
عاد فيها من العالم الخارجي، وضعها في جيبه الداخلي قبل أن يخرج. أحاط الأطفال بالعشب
وكانوا يتوسلون إليها *فارسو، لقد انتظرنا طويلاً، رجاء لا تموتي دون أن نخبرينا كيف تنتهي
الحكاية، أخبرينا كيف تنتهي قبل أن..*.

تأوهت فارسو، منهكة بنقل روحها، وأفافت عندما رأت هاروت جارها. همست ساتو في أذنه:
أعدناها للحياة *لماذا؟* تخيل هاروت للحظة كل الصرخات والصيحات، والبكاء، والمرثيات
الآتية من روح فارسو المعذبة، عالقة في الأحراش الشائكة، *لقد أفسد الأتراك حياة هذه المرأة
البائسة، وأنتم أفسدتم موتها، ألم يمكنكم أن تدعوها تعيش لحظتها الأخيرة بسلام؟* أحاطت ساتو
كنقيها بذراعيها، محرجة من الخطأ الذي ارتكبه *لا أدري، أراد الأطفال معرفة نهاية الحكاية،
وهي تغادر الحياة دون إخبارهم*.

اصطف أهل القرية وجيرانها حولها، يرثونها وهي لا تزال على قيد الحياة. في نهاية المطاف، ما
الهدف أن تفعل ذلك لاحقاً؟ كان على فارسو أن ترى كم كانت قيمتها لديهم بينما لا تزال هنا.
فارسو، ألا يوجد ما تريدين قوله لنا؟

أسكتت *فاجيناك* راعي الغنم النساء الباقيات بنظرة صارمة، *فارسو، فقط في حال، معاذ الله،
حدث شيء لك.. دعيني أرث الحكاية منك. أعطيني الحق كي أكمل الحكاية* *أخي، لديك خرافك
وطاقم الرعاية.. هل تظن أنك أفضل من يحكي نهاية هذه الحكاية؟*، غضب فاجيناك *حسنًا، إذا
أردت الحقيقة، أنت تضعين الأمير في العديد من المآزق حقًا، لماذا عليه أن يصبح سجينًا للوحش،

وأن يشطر الجبل إلى نصفين، ويهزم هذا وذاك؟ يحتاج إلى أن يستمتع بالحياة! دعيني أرث الحكاية، سأجعلها أكثر ثراء، سأمنحه أجنحة، ولحصانه أيضًا! دعهم يحلقون عاليًا في السماء.*
لا يمكنني رفضته فجأة، وهي تمسح عرق الموت البارد من على جبينها، *تحتاج لبقاء هذا الصبي على الأرض.* *فكري في الأمر يا فارسو، سأمنح صبينا قوى إلهية. يمكنه البقاء على الأرض إذا أراد، أو الطيران في الهواء عندما يرغب.* *أي عقل لديك!* نهرته بصوت به أزيز بين أناتها، *أذهب واخلق حكاية أخرى تخطر على بالك.* *لكنه من العار أن نفقد هذه الحكاية، سمعناها طوال تلك السنوات، لقد كبرنا وكبرت الحكاية معنا.. فارسو، اسمعيني، هذه الحكاية موجودة بالفعل، لماذا على أي أحد البدء بحكاية جديدة؟*

إذا كنت مجرد مستمع لها، وقلبك يوجعك لأنك لا تستطيع تحمل التفكير في الخروج منها، فكر فيّ أنا.. أنا التي ابتدعتها. كنت أرويها كل تلك السنوات ووصلت بها لهذه النقطة؛ الآن تريد أن أعطيها لك وأفسدها؟ *هذا لا يكفي يا فارسو.. هذه الحكاية ملك لنا بقدر ما هي ملك لك، إذا لم تمرريها لأي أحد، فعلى الأقل أخبرينا بنهايتها.* *سأفعل.. ما سر استعجالكم؟* *لكن متى؟*
تقدم هاروت، ونظر إلى يريير المرأة، وتعرف على الشراشف التي صنعتها ناخشون. تناول الرمانه ودحرجها بعناية ليد فارسو الضعيفة، وقال بتهيدة: *فارسو..*

فارسينيك.. طلبت منهم لأول مرة منذ مجيئها للقريبة أن ينادوها باسمها الكامل، *من الآن فصاعدًا نادوني فارسينيك.* كرر هاروت اسمها غير المألوف الذي سبب له مذاقًا غريبًا في فمه.
فارسينيك، فكري في أولئك الأطفال المساكين، إنهم يعلقون رؤوسهم انتظارًا لك، أخبريهم كيف تنتهي الحكاية ودعهم يرحلون.. أو اتركي كل واحد منهم يتخيل نهاية تريحه، فكري في الأطفال المساكين!

قالت: *لا، عانى ابن الملك كثيرًا.. حتى لو لم يشترك قط، المسكين مجرد كائن بشري.. أنهكتك تلك المسارات الصخرية تمامًا. سأخذه معي، يمكنه أخيرًا أن يجد بعض الراحة.*

فارسينيك.. أنت لست طفلة، ولا أنا. إذا لم ترغبني أن يعرف الجميع، اكشفي النهاية لي أنا فقط. عاشت الحكاية معنا كل هذا الزمن، ألا يتوجب علينا معرفة كيف تنتهي؟ انظري لأولئك الأطفال، انظري كيف علقوا رؤوسهم محدقين في فمك، أخبرينا ماذا حدث. أجابت بثقة: *سأفعل، لكن ضعني في عربتك، وخذني إلى البحيرة لمرة واحدة.* اندهش ونظر حوله مترددًا، وضحك
فارسينيك، إذا لم يكن من أجل تلك النساء عاليات الصوت، فأنت الآن تقفين عند قدمي الرب، أنت على حافة الموت، لماذا تريدني أن آخذك لأي مكان؟ بالكاد استطاعت أن تقول بثقة: *كما تحب أخي هاروت.*

التقت الأطفال إليه: *إذا لم يشكل الأمر فرقًا معها، أليس الأمر سيان بالنسبة لك؟ على الأقل بهذه الطريقة سنعرف كيف تنتهي الحكاية.* ألحت النساء *إنها رغبة أخيرة قبل الموت.* نظر لها وقال: *حسنًا*، التقطها، مع فراشها وكل شيء، ووضعها في العربة، وأدارها باتجاه البحيرة. عندما قرقت عجلات العربة فوق بعض الصخور، رفعت رأسها لأعلى ونظرت بفخر للجميع، راضية بأنها نالت الحق في مغادرة القرية، ثم ارتطم رأسها بالوسادة.
تتهد الراعي ما أن غادروا، اللعنة عليها، ستروي النهاية لـ هاروت، من نكون بالنسبة لها حتى تنق فينا؟*

غطت الطحالب وحصى البحيرة الفتحات والجير.. حاولت الموجات الصغيرة التي مزقتها الرياح،

أن تصفع الألواح بعناد، وتنتزع الحزاز. كانت المياه الباردة العسوية للبحيرة تصارع الرياح في أعماقها، تسحب موجة لأعلى، وتغضم في الماء مثل كتلة من الشظايا التي تتدحرج بجنون فيما بعد عائدة إلى البحيرة، تحفر في قاعها، لكنها توقفت للحظة عارية وناعمة، وصفعت النوارس التي تجمعت بين الشظايا بالموج. *انظر للسماء في الأعلى؛ فيها الكثير.. انظر للأسفل هنا؛ لا يوجد الكثير..* بداية رفعت ذراعًا باتجاه السماء، ثم علقت باتجاه البحيرة. *لكن كل ما وراثناه من ممتلكات الرب هو العزلة.* نسيت أنها معه، وظلت تحرق في بحيرة *سيفان* وتكلم نفسها. دُهش هاروت *فارسينيك، هل أنت وثنية؟ هل تصلين للبحيرة؟*

هذه ليست بحيرة يا هاروت، هذا ما تبقى من طوفان نوح، هذه آخر رشفة من غضب الإله.. ألا تعرف لماذا؟ لأنه لا تزال هناك خطايا على الأرض يجب أن تُمحي. لا تزال هناك أشياء يجب إغراقها.. تلك الخطية الدموية التي اقترفناها يجب محوها..

أوه، أيتها المسكينة الساذجة فارسينيك.. ماذا يمكن للبحيرة أن تفعل؟، تنهدت العجوز *يمكنها غسل الدماء في الماء، لطالما تم غسل الدماء في الماء.* قال هاروت: *عندما يكون شخص وحيد ساذجًا، مثلك فارسينيك، ممكن أن يخطر له ذلك كخاطر لطيف؛ لكن عندما تكون جماعة من الناس يمثل هذه الساذجة، عندها يكون ذلك عيبًا جسيمًا. وخطأنا أننا بأنا بآن الدماء تم غسلها أو محوها، بينما شربها آخرون في الواقع، وهكذا فارسينيك، أن الأوان أن تُتهي حكايتك.. ماذا حدث لابن الملك؟* *أنا لا أدري، أقسم لك بذلك..* أقسمت بقبضة من يدها على صدرها *إذا كنت أعرف كل ذلك، لما كنت أنا فارسينيك، لكنت إلهنا.* أغمضت عينيها ورحلت، وحملت روحها كل المعاناة والعذاب الذي تحملته مقابل أن تكون طفلة الرب.

استدار هاروت عائداً بالعربة إلى القرية، يحمل على عاتقه واجباً جديداً الآن. *اللغنة عليك فارسو.. ماذا فعلت بي؟ هل أمكنك أن تجعلي الأشياء أصعب لي مما فعلت؟* من يدري إذا كان ما فعلته أمراً طيباً أم شريراً، أن أكلت واجب إكمال الحكاية له؟ منذ وصلت القرية حتى هذا اليوم، كان ابن الملك ما زال في العشرين من عمره، تماماً مثلما كان في البداية. لم يفكر أحد في سؤالها، *فارسو، العديد من الناس ولدوا وماتوا على مر السنين، لماذا لا يكبر ابن الملك بأي حال؟ ولذلك يعود الأمر إليه الآن حتى يجعله يكبر.*

يعتقد أهل القرية أنها أخبرتني بالنهاية.. أحتاج لابتكار نهاية ما، وإلا سيشعر أولئك البؤساء بالخذلان. إذا فشل، سيأخذ بالحل الذي اختارته فارسو؛ *سأظل أحكي الحكاية، وأجعلها تطول وتطول.. متظاهراً بأن نهايتها ليست مثل النهايات الأخرى، فهي أكثر قوة وتحتاج لجهد أكبر للوصول إليها، على الأمير أن يواصل حكايته، فهي تحتاج إلى وقت إضافي.*

جلس الناس في الحداد في المأدبة التذكارية على روحها، يندبون ويتذكرون فارسو، ويروون حكايات عن ذكرياتهم عنها، وعن الأحداث التي ارتبطت بها، وندبها الآخرون بإطلاق التهديدات، أوه، أوه، وفجأة صفعت بيرو كأس الحداد على الطاولة، وقد ثملت وبدأت تبكي. فهم الناس في النهاية أنه لا أحد سواها له كل الحق في البكاء، فلديها الكثير لتبكي عليه، وتركوها تبكي علناً. شعر *بافاكان* بالأسى عليها حين رأى فيض الدماء في عروقها وقد خنقت بياض عينيها، فحاول لفت انتباهها للحياة *بيرو، كيف حال زوجك؟* *هو بخير، أنا واثقة، لماذا لا يكون بخير؟ فهو يعيش في البيت الذي بناه أبوه، ويأكل الطعام الذي يأتي من عمل زوجته، وكل ما يشغل حياته برمتها شهوته للطعام؛ فلماذا لا يكون بخير؟* *حسناً، هذا جيد، هذا جيد.. كيف حالكما معاً؟ يبدو

أنكما على ما يرام*. أجابت بيرو بصوت مبلل بالدموع: *نعم، طالما أنا التي تتحمل عبئه، نحن بخير. وهو يقدم الدليل على مدى حبه لي أربع أو خمس مرات في اليوم*.
تذكرت معها *فاهان* الذي كان له أربعة صبية. *لعل أولئك الأتراك يموتون، لعلهم لا يرون حظاً طيباً في حياتهم. أشعلوا النار في الليل بالدار، وقاموا بشواء عائلة بأكملها، كانت مبتسمة أثناء نومها!*. وعندما سُئل ذلك العم عن بناته بالتبني، كان يقول عن أكبرهن: *أوه، أستغفر الله، لم أكن لأرغب في ابنة لعدو بالتبني مثلها. والوسطى؟ لا يوجد ما هو إنساني بخصوصها. أما الثالثة، فهي ليست مثل الأخريات، لكنها لا تزال غير سوية. والرابعة امرأة طيبة، لا يمكنني قول أي شيء عنها*. هنا كان عمها يتهدد ويقول: *لقد اختقين جميعاً..*.

خطت بيرو للخارج، وبحثت عن هاروت بين الناس المحتشدين، ورأته في الحديقة متحدثاً إلى ساتو، وبينما سارت إليهم سمعتها تقول: *جمعت ملابسها في صرة، ووضعتها في عربتك، عندما تذهب للعالم الخارجين أتركهم في مكان ما، أو امنحهم لشخص ما، ستكون ماثرة طيبة.. يمكن لأحد ما أن يرتديها*. قال هاروت: *أعطني خرزاتها القلقة (مسبحتها)، كانت امرأة طيبة، أريد الاحتفاظ بتذكاري منها*. خلعت الخرزات من صدرها ومررتها له، *إنها من العنبر، جلبتها معها من تلك الحياة الأخرى التي عاشتها*. أخذها هاروت، ودحرج بعض خرزاتها فوق بعضها وتهدد، واضعاً إياها في جيبه.

وأمت بيرو إلى هاروت، وسحبته إلى جدار، حيث كانت امرأتان تجمعن الزبد المجفف بسرعة حتى لا يطوله الغبار من أقدام الناس الآتين والذاهبين، وقالت: *هاروت، لقد نلت كفايتي من البكاء، إنه أمر صعب، صعب جداً، أن تتحرر من ماضيك*. ثم قلت لنفسني: *لماذا تبكين؟ من لا تملك ماضياً هي التي يجب عليها البكاء، سواء كان الماضي طيباً أو سيئاً، فقد عشت حياتي، ولم أترك شيئاً خلفي.. ألا تعتقد أنني محقة؟*. *أنت على حق، عادة ما تترك الحياة مع شيء ما تجاعيد على وجه أولئك الذين كانوا سعداء، لكنها تحفر عميقاً في أرواح الآخرين..*. *ليس عندي تجاعيد* ومررت يداً على وجهها الذي حرقته الشمس. *لا، ليس عندك تجاعيد، أنت امرأة جميلة*. *إذن قل لي: هل يتوجب علي أن يكون لي ابن منك أم من ابن *موسابيل*؟، قهقهت النسوة اللاتي يجمعن الزبد المجفف، *لعبت الفودكا برأسها* بالرغم من أنه من ناحية أخرى، لم تكن جرعة كبيرة واحدة من المشروب تقود إلى مثل هذه الأفكار.. أبطأن من عملهن وأنصتن، رغم التظاهر بأنهن لم يتعمدن ذلك. *ابن موسابيل هو الخيار الأفضل* تظاهر بالدعابة وغادر، مختلطاً بالرجال الواقفين في الجوار يتكلمون عن المتوفاة، ويناقدون جوانب حياتها التي لم توضع في الاعتبار من قبل.

اشتكى *فاسيل* مقرباً من هاروت *عاشت في قريتنا لزم من طويل، لكنها لم تعتبرنا قط عائلة لها، لم تجعل منا قط أسرة سيدة يمكننا تذوقها*. دافع عنها هاروت *بربك يا رجل، هل عليك أن تأكلها لتتذوق كيف كان طعمها؟*. أكد رجل آخر *أفصد، مع الحكايات التي طبختها، يمكنني تخيل كم كانت ماهرة في الخبز!*. *أي حكايات؟ في النهاية كانت كلها حول أمير وحيد، وحصان وحيد، ليس كذلك؟ أعني أنك إذا كنت تخلق حكاية، فلماذا لا تجعلها تدور حول عشرة أحصنة؟ جعلتنا جميعاً عالقين بمصير ذلك الشاب الوحيد وذلك الحصان الوحيد. هل كان ذلك لطيفاً منها؟*. لم يكن فاسيل متسامحاً معها.

تقدمت بيرو إلى الرجال في تلك اللحظة، ورمت هاروت بنظرة عدائية وبصقت، *يمكنك الاحتفاظ

ب موسايل.. لماذا أتورط مع عجوز آخر، ألم أعان بما يكفي على يد العجوز الذي لدي؟ قل لي شيئاً واحداً: هل عليّ أن أحظى بفتاة أم صبي؟* *الطفل طفل، لا يهم جنسه، ما يهم هل لهذا الطفل حظ طيب؛ أب وأم* *حسناً، أيّ ما يمنحني الرب إذن..* *، وافقته، *لكن يا هاروت، لا يهم إذا صعدت حتى للسماء وعدت مرة أخرى، أنت لن تقدر على منعي، سأنال ما أريد* *تخلصي من هذا الحمل على كتفك، لن أقترح المضي قدماً في هذا* *طرقت لسانها، وقالت بصوت رتيب، قبل أن تترك الرجال في حيرة: *من طلب منك على أي حال؟*

سألت سيساك ضاحكة: *عن ماذا كان هذا الحديث يا هاروت؟*، ابتسم فازجين متسامحاً *بربك الآن.. هي امرأة عجوز، وكان لديها ما تشربه.. علينا أن نسمح لها أن تبوح بما لديها*.
في اليوم التالي، احتشد الناس للذهاب إلى مقبرة فارسو، عندما ظهرت بيرو مرة أخرى، والتصقت ب هاروت بشدة!، *هاروت.. هاروت أخي.. لقد فعلتها*، رن صوتها بالرضا عن نفسها عالياً، حتى إن الناس في مقدمة الحشد استداروا ونظروا إليه متسائلين. همس لها وهو يجز على أسنانه: *لقد عانيت الكثير، أريدك أن تفكري بجدية في أسلوبك، لماذا تتكلمين بهذا الصوت العالي؟*
أدارت عينيها برضا، وحاولت أن تهمس في أذنه: *لم يغفل لي جفن طوال الليل، أفكر.. هل عليّ أن أفعلها أم لا؟ أفعلها أم لا؟ ثم قلت لنفسني: *بيران، لقد حظيت بنصيبك من حليب أمك في هذه الحياة، يمكنك المضي قدماً وقتل ذلك الرجل. كنت أفكر لأكون صادقة، وكنت خائفة من الرب قليلاً*.* *لكن لماذا تقتلينه؟ إذا كنت ستسبينه، فلا تفكري فيه، أليس ذلك نوعاً من القتل له أيضاً؟ هل لا بد للناس أن تفصلهم طبقة من التربة عن أحدهم ليكون ميتيناً؟ هل يختلف نسيان كل ما يتعلق بشخص ما عن إهالة التراب عليه؟ في نهاية المطاف، أن الأوان ليُراكم على شخص كل يوم بحفنة من التراب..، لم أعد قادرة على تحمل الأمر، هاروت، لقد وصلت للسكين..*.

ماذا؟ من قتلت؟ النساء في المقدمة لم يصبرن واستدرن ناحيتهم، وفتحت ابنة الراعي الصغرى عينيها على آخرها، حاملة العطور وأعواد النقاب، وسألت: *من قتلت؟* همس لها هاروت: *لقد أهنتي* *وأوقف الحشد ليعلم: *علينا أن نجتمع في المساء، كلنا، هناك ما نحتاج لمناقشته*.
في تلك الليلة، جمع هاروت الناس في القرية وقال: *كل هذا العمر لم أسألكم قد من تكونون، أو من أين أنتم، أو ماذا تريدون، أو من كان ربكم، ولمن تصلون.. ولن أسألكم الآن. لكن في الفجر سيأتي بعض الناس، ومعهم مسدسات وأسلحة أخرى، وسيقدمون طلبات. لدينا الليلة فقط لنقرر. ركزوا على رغباتكم، اختاروا قصة لأنفسكم – ماضٍ ومستقبل – قبل أن يقوموا بتسجيلكم، اكتبوا تفاصيل حياتكم في سجلات الدولة واختموها. إذا أردتم، يمكنكم نسج حكاية عن حياتكم كما فعلت فارسو، ويمكنكم أن تردوها في أذان العالم مثل رصاص منصهر. إذا أردتم، يمكنكم أن تجتهدوا لاختلاق خطايا أشخاص آخرين، مثل أسرى الحرب أولئك. افعلوا ما تريدون، لكن اتخذوا خياراً. اختاروا واحداً من الوجوه العديدة لديكم، الأقرب إلى أرواحكم، الوجه الذي سينتهي به الحال مرسوماً على قطعة من الورق يعيدونها لكم. قررنا كل شيء الآن؛ لأنه بمجرد أن يوسم ذلك الختم على الأوراق، لا يمكن تغيير أي شيء. كل ما تملكونه هو هذه الحياة الوحيدة، وهذه الليلة الوحيدة.. قررنا ماذا ستقولون وماذا ستفعلون*.

هل يمكننا اختيار اسم مختلف؟ *يمكنكم فعل أي شيء..*.

سألته ساتو: *ماذا عنك؟ هل قررت؟*

ليست لدي أي رغبة في الاختيار، ولا أملك أي خيارات، الجميع يعلم أنني هاروت.

كان *أسو* يحاول استكشاف الأمر، *ما الكلام الصحيح الذي يجب علينا قوله إذا ما سألنا، هل نقول أننا نعرفك؟*

أنتم تعرفونني، نحن عشنا في القرية نفسها، وتنفسنا الهواء نفسه، وشربنا المياه نفسه.. وألقينا التحية على بعضنا كل يوم، وسألنا بعضنا عن الأحوال ذات مرة حتى.

ماذا عن هايكي؟ كيف يمكن لهايكي أن يختار حكاية له؟ هو لا يستطيع! استدار الجميع ونظروا إليه، جالساً في حالة من الخدر عند قاعدة الجدار. اقترحت *نوييم*: *يستطيع كل منا خلق حكايته، ما يبقى في النهاية هو هايكي؟* تدمر فاسيل *هذا ليس عدلاً، لديه بالفعل ما تبقى الآن، هل هذا خياره حقاً؟* قال هاروت: *لا تقلقوا بشأن هايكي، فكروا في أنفسكم، ودع الرب يقلق عليه*.

قام وكان على وشك المغادرة، حين هتفت ساتو: *لدي ما أقوله لك، أريدك أن تعرف ما جرى في تلك الليلة البعيدة، حين أنقذتني من التيه في الجبال.. أريدك أن تعرف ماذا كنت أفعل* قاطعها، هذا ليس من شأني..* صار صوتها أجش محتقناً بالمشاعر، وأخذت نفساً عميقاً، *عليّ أن أقولها..* تقريباً صرخ فيها: *لا تقوليها، احتجت لمن ينفذك وأنقذتك. الباقي لا شأن لي به. أنا فقط إنسان، روحي روح إنسان.. لا أستطيع تحمل الأمر، هل تفهمين؟ لا أستطيع تحمل هذا العبء..*.

عاد للبيت، رقد وغاص في النوم. جاءه حلم.. من نوع الأشياء التي تراها في الجحيم فقط. لا يوجد مخلوق آخر للرب يمكنه التعايش مع شيء كهذا، فقط جحيم طيب. رأى نفسه جالساً في حديقة مثل حدائق الحواديث، حديقة إلهية. تفتحت فيها الأشجار التي لا أوراق لها، وتكاثرت مثل فقاعة، وامتزجت الألوان والروائح في شيء واحد، طبخت معاً لتتحول إلى الميرون، أو الزيت المقدس. حوّمت النحل الصفرى حول الأشجار، تنزق قلوبها ورناتها بصوت أجش مشحون بالمشاعر، ولم تستطع العودة.. يُعطسون الوجه في أرواح الزهور، ويمتصون ويمتصون.. أي عسل حلوا صنعوا! وجلس هناك وحيداً. بين تلك الأشجار والزهور. بين ذلك الزيت المقدس والطائفة، واستطاع سماع صوت التيار. هبت الرياح الصافية من منخاري السماء تعصف بفروع الأشجار أحياناً، ليمتزج تصفيق الأشجار مع الأصوات الصادرة عن الطيور، والنحل، والماء. تدفق التيار عبر الحديقة تحت أقدامه. اصطدم التيار البارد بصوت سقوط الفروع وهي تحمل الماء، وتتهشم أجزاءها المبتلة فوق العشب والزهور. وتمدد الزعرير مثل امرأة حامل، معلقة فوق التيار وبتلات الزهور الموبوءة بالدود، ملامسة سطح الماء. جلس هناك في ذلك اليوم الدافئ الحاني، والشمس الأكثر دفئاً وإشراقاً! والأكثر إلهية، ابتسمت، منحت الحرارة وابتسمت للعالم الذي منحته الدفء. ذابت السحب البيضاء في وسائد عند شفاه الشمس. جلس هناك. كانت الطيور تغني بأصوات الملائكة، صوت الله، نضحت أغنيتهم غباراً ذهبياً في روح الإنسان. يمكن سماع فهقهة فتاة من مكان ما، ثم همسات إنسان بكلمات مقصودة لأذن واحدة فقط.. وجلس هناك في المنتصف، تحت الشمس حتى نهاية كل الشموس. كان منصتاً لأغنية الطير، ناظراً إلى النحل النهم، والأشجار النضرة بلا أوراق.. وتوالت الأحداث في الحديقة مثل عسل مدغدغة حلقة بخدش حلوا.

جلس هناك، محاطاً بالكلاب. لم ير أي أحد شيئاً كهذا قط. كانت الكلاب وسيمة، كلاب رعي بوجوه كبيرة. ذهبت للسباحة في النهر وهي الآن جائعة. نظرت إليه. علم أنها ستأكله. قرر أن يخذعها.. نزع ذراعه بداية ورمها لها. أكلتها ثم نظرت إليه. ما زالت جائعة. انتزع ساقاً ورمها لها. أكلتها واستدارت إليه مرة أخرى. لديه ساق واحدة فقط، لكنها كانت كثيرة. دمدمت وحدقت فيه. خلع ضلوعه ورمها لها. هناك الكثير منها، العديد من الكلاب. لماذا خلق الله العديد والعديد

من الكلاب؟ لماذا أرسلها إليه؟ ألم يعلم أنها ستأكله؟ لا يمكنها الشعور بالشبع أبدًا. هي كلاب رعي. نظيفة ومستحمة للتو في النهر. ماذا يمكنه أن يفعل؟ مزق جسده قطعة تلو الأخرى وأكلتها. لم يعد فيه شيء باق.. لم يبق إلا هو وقلبه. لم يعد فيه شيء باق. وهناك العديد والعديد من الكلاب. كلاب رعي. تنظر إليه وتدمدم. تلوى حول قلبه، وانكمش عليه، محاولاً حمايته حتى لا تراه الكلاب، حتى تظن أنه انتهى، ولم يبق منه شيئاً. لكن الكلاب – كلاب الرعي – خنقت العديد من الذئاب ومزقت العديد من الخراف إرباً..

شمت الكلاب رائحة القلب. كانت تدمدم وتتبع عليه. كان شخصاً ما في مكان ما يسن سكيناً، كاشطاً إياه في الجدار. استطاع القول أن تلك السكين ستشق قلبه. وجلس هناك. استيقظ على نباح الكلاب. *إنها ستلد..* فكر مع نفسه في حالته نصف الناعسة، واستدار على جنبه وغاص في النوم مرة أخرى.. ظهرت أمه من مكان ما في الضباب المبهم، أو بالأحرى امرأة، مخلوق غير ملموس لم يوجد من قبل قط، وجد فقط التفكير فيه.. لم يندهش لرؤية أمه، فهم أنها كانت واعية كذلك أن الأحلام كانت الملاذ الأخير، المكان الأخير الذي يمكن للمرء الاختباء فيه. كان كلاهما يقوم بالفعل ذاته للبقاء حياً.

عند الفجر، ظهر بيرش أيضاً، في السن التي لم يكن قد فقد فيه عقله بعد، في الماضي البعيد، عندما كان يأتيه بالمصاصات من العالم الخارجي. *لا تنس أبداً أنك ورثت الطرق التي قطعتها.. تلك الطرق شهدت العديد من خطى الأقدام، كما شهدت السماء أرواحاً.. خطى الأقدام نور مثلها مثل الروح، وإلا لن تستطيع الطرق تحمل وزنها* قال ذلك واختفى.

تدافع الفجر عبر حلق الديك، وعندما صاح صار الهواء أحمر بقوة الصباح. خدش الديك *دودل دو الأول* الفجر مثل تيار ماء يضرب في ريح قوية، لينشطر ويتحول إلى رطوبة.

في الصباح، جاءت كلاب الصيد، ورجال الشرطة، والجنود، باحثين عن السمكري. جرت الكلاب يميناً ويساراً وتشممت، وزامت ونبحت، تمكنت من الرائحة التي تبحث عنها. لم يستطع رجال الشرطة والجنود تصديق أعينهم، كيف أمكن لقرية لا يعرفون عنها شيئاً أن توجد هنا؟ وقد وضعوا حتى أرقاماً على كل الصخور، والشجيرات، والأحاديث التي تبادلها الناس، وأفكارهم، وأحلامهم. كيف أمكنهم أن يغفلوا عن قرية بأكملها، بمداخنها ودخانها، ونباح كلابها، وخوار أبقارها، وثغاء أغنامها، وحظيرتها، حيث يربط الحمير في الحديقة لتحتمي من حرارة الشمس وضربات نهيقها.. لا تزال المقبرة تآبى أن تمنح فاردنيان أي سلام، بينما الآخرون يحصون عدد البيوت والماشية أثناء فحصهم لأهل القرية، وتسجيل الحيوانات والكلاب التي امتلكوها، ظل يسأل كل من كان ينصت له: *ماذا عن المقبرة؟ من يرقد فيها؟* *أي مقبرة؟* *تلك الموجودة أسفل القرية.. من يرقد فيها هناك؟* *أوه، تلك ليست حقاً مقبرة، إنها فارغة* ابتسم الناس له باعتذار، *لا يوجد جنمان هناك، مجرد حجر*.

ماذا؟ اتسعت عيناه، *ماذا فعلتم بالجنمان؟* *لم يكن هناك واحد في الأصل.. تلك مقبرة أم ناخشون.. استيقظنا ذات صباح ورأينا مقبرة حجرية وضعت هناك، فقط لتذهب هناك وتحرق بخوراً بين الحين والآخر في ذكرى أمها. أقصد، لقد ذبحوا جميعاً هناك، أتعرف، لم تبق جنامين هناك* سحب رجل الشرطة ذراع المتكلم ناظراً بحنق في عينيه، *أخبرني بالمزيد عن ذلك*.

استيقظنا ذات صباح، حين ذهبت بعض نساء القرية لجمع بعض الزعتر، رأين الصليب الحجري هناك، بينما لم يكن موجوداً في اليوم السابق. *جلبوه أثناء الليل، لم يكن كافياً أننا قبلناهم بين طيات

قربتنا، الآن علينا أن نتقبل موتاهم كذلك*.* إذا جاء أولئك الناس هنا للأبد، يجب عليهم جلب كل ما يمكنهم معهم. لن يتركوا خلفهم ما ينتمي لهم، أيفعلون؟ الكل كان يقول شيئاً ما عن الأمر*.* تتم رجل الشرطة: *أثناء الليل.. لكن إذا لم ترونه، كيف تعرفون من وضعه؟ كيف تعرفون إذا كان هناك جثة أسفله أم لا؟ قل الحقيقة..* وحق فيه مهرداً. *لماذا أكذب عليك؟ ربما انتهى ذلك اليوم، لكن الرب لا يزال هنا، إنها فارغة، صدقني. الأتراك افترسوا الجثث منذ سنين أثناء المذابح.. لا أذكر بالضبط إن كانت أمها أو أم بيرو.. دخلوا بيتها ووجدوها تخبز العيش، لصقوها في التونير وخطوها مع الخبز الذي خبزته. قابلتها في ذلك التراب الساخن.. الجثمان بعيد جداً، والمقبرة فارغة*.* ربما هذا ما قالوه لك.. لكن من يمكنه أن يعرف يقيناً إذا كان هناك أحد من عدمه*.*

وضع فاردنيان كل الخيارات في الاعتبار حتى الآن، امرأة، طفل، انتحار، جثة مجهولة.. تخيل كل احتمال.. لكن نعش فارغ! لم يرد تصديق ذلك، لم يستطع التسليم بحقيقة أنه عُذب طويلاً من أجل لا شيء. *هل أنت متأكد أنه لا يوجد شيء هناك*.* إذا لم يكونوا قد عادوا على طول الطريق إلى تركيا لاسترداد الجثة.. هل يمكن لأحد أن يفعلها من هنا إلى تركيا على عربة هاروت وثوره*.* من قلت أنه جلبها إلى هنا*.* ناخشون؟ هاروت وثوره*.*

كان الشك أفضل من الفراغ بالنسبة لـ فاردنيان، فيمكنك أن تجادل شكاً، تقبله أو ترفضه، وتنتشره. بمعنى آخر، يمكنك اتخاذ موقف تجاهه؛ لذلك قرر أن يقف وحيداً في مواجهة كل من تخيلوا ذلك الفراغ الذي عذبه طويلاً. *أحتاج لمراجعة هذا.. ناخشون يمكن أن تكون تركية تدعي أنها أرمينية.. ويمكن أن يكون هاروت جاسوساً*.*

السحب الحمراء الحامل في ضوء الشمس، سرقت نجوم السماء براحة اليد. مُربي الأبقار الشاب، الذي جاء ليحل محل أبيه المريض، استند إلى الجدار الحجري، وتثاءب منتظراً بصبر حتى يجلب الناس حيواناتهم له. تجمع بضعة أبقار بالفعل، بالكاد واقفين وخاروا في الهواء. وقفت النساء هناك، يتكلمن مع بعضهن، سعيدات أنهن أرسلن حيواناتهن للمراعي. اتسعت عينا مربي الأبقار المتثائب فجأة. صرخ: *أوه، يا ربي!*.* وعندما استدارت النساء باتجاه الصوت، أشار للعربة التي كان صريرها يتصاعد مع أصداء الجبال. همست النساء: *أوه، يا ربي، نحن نرى أشياء لم نرها من قبل قط*.* اقتربت العربة، وسأل رجال الشرطة الجالسين فيها الصبي بعض الأسئلة. حدّق الصبي في العربة برهبة. كرروا سؤالهم، وتلقوا إجابة من الصبي، الذي تكلم دون النظر بعيداً عن حصان العربة، وحين غادروا جرى الصبي للقريبة صارخاً: *الجميع..*.* كما لو كان يستعد لإطلاق أنباء تراجيدية.

عندما خرج رجل الشرطة من منزل ناخشون، تجمعت القرية بأكملها، طلبوا من ناخشون الذهاب إلى عاصمة المقاطعة، وأخبر فاردنيان الناس الواقفين: *لا شيء مرعب بخصوص ذلك..*.* سألت الصبي مشيراً للعربة: *ما الذي يمكن أن يكون أكثر رعباً من ذلك*.* دهش رجل الشرطة ناظراً في الاتجاه نفسه. *ماذا عنها*.* سألت الصبي، *أليس لديك أي ثور؟ لماذا تستخدم حصاناً للعربة بهذه الطريقة*.* *أوكي، إذن أنت لا تملك ثوراً، ولا حميراً حتى؟ هل أنت فقير لهذا الحد*.*

ذهل البعض من وقاحة الصبي، ولم يفق البعض الآخر من الصدمة بعد. لم يتخيلوا أحصنة تعامل بهذه الطريقة. الحصان الوحيد الذي يملكونه -حصان هاروت- استخدم فقط لحمل العرائس في احتفالات الزفاف، ولمنح الشعر للجمال التي تستخدم للتهوية، ولتنفيذ أحكام الجلد. كان على ذلك الحصان أن يحمل أثقالاً مرتين فقط؛ مرة عندما ذهب ساتو ليلاً لجلب عظام الموتى، التي لم

يعرف عنها أحد شيئاً حتى اليوم، والمرة الثانية عندما أخذ هاروت إحدى الفتاتين التوأم للعالم الخارجي ليخلصها من النزيف حتى الموت.

فحصت سيساك الحصان بأسى، *هو أصغر من حصان هاروت كذلك، أوه، كم هذا ظالم..*. ضحك رجل الشرطة وهو بانتظار خروج ناخشون، *أو، بربك..*. عندما جلست ناخشون في العربة، تقدم هاروت للأمام لينضم إليها، دفعه رجل الشرطة جانباً باعتذار، *هاروت، أنت لا تتوقع مني البقاء في قريتك، أتفعل؟ هذه العربة مصممة لركوب اثنين فقط*. استاء هاروت لكنه لم يُكنّ مشاعر سيئة تجاه ما يجري، رغم أنه علم ما كان يجري في العالم، ونوعية الزمن الذي يعيشون فيه، كان مقتنعاً أن الزمن سيتجاوزهم لأنهم لم يكونوا جزءاً من العالم الخارجي، وعاشوا على نحو ما خارج الزمن. سارت سائتو مسرعة لتصل إلى ناخشون، وتقريباً دخلت العربة. ووضعت سلسلة من العنبر الأسود حول عنقها. *ربما هناك بعض الأخبار عن أقاربك أو أبيك، ولهذا تم استدعاؤك إلى هناك*.

فردت سائتو سلسلتها، وأرادت أن تقول شيئاً حميمياً، شيئاً طيباً، وهكذا، لأول مرة أفصحت عن مهنتها الحقيقية. *أعطتني مارو هذه السلسلة عندما أجهضت ابنتها..*. نظرت لها ناخشون باندهاش، ابتسمت العجوز بشكل مزعج، *بالطبع فعلت، لم أستطع ترك واحدة مثلها تتكاثر، هل يمكنني؟*، وواستها قائلة: *لا تقلقي الرب معنا*. تنهدت ناخشون، *أو، أمي الحلوة، الأمر أننا لم نر ما الذي يقدر عليه الرب..*.

كانت هذه أول مرة تغادر امرأة القرية للعالم الخارجي منذ وصولها، دون أن تعرف لماذا تؤخذ من قريتها، وبدأ الناس يزينونها، لم يرغبوا أن يظن ساكنو المدن أن قوم الجبل لا يملكون شيئاً. كانت الكرامة الوحيدة التي يمكن للأيتام أن يشعروا بها يقظة بداخلهم، جلب الكل أي خاتم أو قطعة مجوهرات اقتناها، وناولوها لها، ثم أرسلوها بعيداً. دفع رجل الشرطة هاروت بعيداً، عندما جلست في العربة، قائلاً إنه لا يوجد مكان له، ولم يشك أحد في أي شيء. كانوا لا يزالون يشعرون بالشفقة على الحصان الذي يجر العربة بدلاً من حمل عروس. تابعوا العربة بحزن لوقت طويل بعد رحيلهم، وواسوا أنفسهم بالقول أنه على الأقل حمل ناخشون التي تخصهم. حدق أحد الأطفال وأطال التحديق ثم سأل: ليس هذا حصان حكاية فارسو، أكان هو؟ ليس هذا ابن الملك..*. هدأ جده من روعه، *لا يا عزيزي، هناك العديد من الأحصنة في العالم.. وهناك أماكن حيث تجدهم في قطعان، مثل أغنامنا.. لماذا كانوا يطاردون الحصان في الحكاية؟*. وتشتت الناس، كل غارق في أفكاره الخاصة.

بعد مغادرة العربة، أبقى الرجال أنفسهم منشغلين بإخفاء كبش فاجيناك، كبلوه على الأرض وداروا معه. أمسك أحدهم الحيوان من حوافره، والآخر من قرونيه الملتوية، والثالث يدور مع الآخرين حوله، صارخين بالتعليمات: *اضغط رأسه لتحت.. القرون، كن حذراً مع القرون.. جيد، جيد، اجلس.. اضربه، اضرب ساقيه..*. صرخ فاجيناك خائفاً من رفسات الكبش الوحشية: *هو كبش قوي! أمسكه بقوة!*. وكان يتلاعب بكيس صفنه منتظراً اللحظة المناسبة ليقطره، *أمسك جيداً.. احذر حتى لا ينطح تلك القرون في صدر أجدنا!*.

بعد هذا التخدير، عمل الرجال في أزواج ليمسكوا كل من قرنيه مثل ذراع، راقداً على الأرض، ظل يرفس وعضلات سيقانه التي أمسكوا بها تتقبض، وقرونيه تحفر في التربة، وجسده يرتجف.. كان يحاول تحرير نفسه مع آخر عرض لغضبه.

حل الليل الآن، كان القمر ناعماً وفاض على البحيرة صورة مفرغة له، شفافاً مثل جلد ثعبان منزوع، واشتبك مع السحب. أشعل الرجال النار وانتظروا ناخشون حولها. احترق الروث وانطفأت ألسنة اللهب. أدفأ العنبر الساخن البطاطا، مثل دجاجة ترقد على بيضها مستخدمة صدرها لتدفئه. ربض الناس في الجوار، ولوثوا أيديهم وهم يقشرون البطاطا، ولوثوا أفواههم وهم يأكلوها. أكلوا ونظروا إلى هاروت، وأضافوا بعض الملح على البطاطا المقشرة، وأكلوا مرة أخرى ونظروا إلى هاروت. تنهد اثنان منهم ليظهرا استيائهم، ونكز آخر في الرماد بإصبعه واستخرج قطعة بطاطا، وقدمها لـ هاروت.. مضغها الأخير، دون طعم لها في فمه، وعيناه محدقة في العنبر الساخن المدخن؛ مفكراً، ليس الروث الذي احترق، إنما استهلكته ألسنة اللهب. جلس حول العنبر الدافئ، قشر البطاطا وأكلها، وقشروا البطاطا وأضافوا الملح وأكلوها.. وانتظروا. انبلج الفجر، وصار النهار وشيئاً في يوم بارد، غاصت السحب السوداء في ماء الفاكهة، وكانت لتتفجر لو لمسها أي أحد، جهز هاروت ثيرانه، وحمل عربته وانطلق للعالم الخارجي. عاد سريعاً. لم يكن ممكناً كبح قلق أهل القرية. تسلقوا العربة سريعاً، وأزاحوا الصخر الملحي، لكن لم يكن هناك أحد تحته. أخذ هاروت السمك الناعم الخالي من العظم، ورماه على الصخور لتأكله الطيور، واندفع باتجاه منزل ناخشون. ظل هناك لوقت طويل. رآه الذين تلتصصوا من النافذة يقلب في كل شيء في المنزل، باحثاً في كل ركن ومخبأ، لم يفهموا ما الذي يبحث عنه، أو ربما يحاول إنقاذه، بينما أبعد الشيء تلو الآخر خارج الباب.

عندما خرج كان مهموماً، يلم ينظر لأي أحد في عينيه وذهب إلى قبر أمه، في اتجاه الصليب الحجري الذي أتى به منذ سنوات عديدة؛ ذلك الذي لا يوجد أحد تحته، ذلك الصليب الذي اعتنت به ناخشون كثيراً، حتى نسي الناس أنه قبر فارغ. مرر أصابعه عبر العشب وهو يبعد الطبق الطيني من ركن الحجر. وجد بعض الشوك الجاف لا يزال يتأرجح على سيقانه، رغم كل جهود الشمس. انتزعها دون حذر من جرح أصابعه، ثم سحقها ووضعها في الطبق، ثم أشعل النار فيها. عندما خبت النار، رش بعض البخور فوق الرماد. انتظر حتى يذوب البخور تماماً وعقد عزمه، سيحصل على صليب حجري آخر من أجل ناخشون، وستقول: *من أجلك، ذلك الذي لم يعد قط..* في ذلك المساء تحدث هاروت مرتعشاً بالمشاعر وبالحدس على الأطفال الذين دلوا سيقانهم بالقرب من النار – إلى الناس المتحلقين حول التونير: *يقولون إنهم حققوا معها، ونفوها بكل بساطة، وهي في كامل حليتها وزينتها. ظل المحقق يسألها عن علاقتها بأبي الأطفال. تحول لون ناخشون للأحمر والأزرق، لكنها بقيت صامته. أثار صمتها العنيد غضب المحقق. لم تكن هناك محاكمة، ولا إجراءات.. رأساً إلى المنفى*. قطعت سيساك الصمت: *هل المنفى الروسي مثل المنفى التركي؟ هل يقودونك إلى الصحراء؟*. أجاب: *تقريباً فيما عدا أن صحراءهم ثلجية*. ردت سيساك: *أوه يا ربي، إذن هناك فارق هائل.. صحراء ساخنة، والأخرى باردة..* بعد اعتقال ناخشون ونفيها، لم يظهر أي شخص جديد في القرية لعشرة وربما خمسة عشر عاماً. ثم ظهرت ذات العربة يقودها ذات الحصان. جلس فيها رجل شرطة تجاهل كرامة الحيوان وهو يجلداه بالسوط ويجبره على العدو في الطريق الصخري. أثار هذا غضب الأطفال فرموا العربة بالحجارة. أصابت بعضها خلفية العربة.. لم يكن رجل الشرطة السمين مرتاحاً بسبب كرشه، زار وأدار رقبتة ونظر بعصب للأطفال، الذين بدوا غائمين في سحابة الغبار. جرى الأطفال خلف العربة وهم يقولون: *علجوم ضفدع (شخص تافه) حامل، علجوم ضفدع حامل* ليغيظوه. غمغم

الرجل: *جراة صغيرة..* غير منزعج من هذا التحرش البريء.
لم يستطع هاروت أن يهدأ منذ نفيت ناخشون. كان قلبه يتألم، والتفكير الوحيد الذي عزاه، أن كل امرئ عاجز أمام قدره. تذكر باستمرار أقدامها العارية، وجلدها الشفاف، والعروق الخضراء تلمع تحته، كلها مدفونة في ثلوج سيبيريا، ويتجمد الدم في عروقه من هذا التفكير. كان هناك ألم هائل لا اسم له يوخزه من الداخل. ظل يفكر في أنها سحبت قبر أمها من حياتها السابقة إلى هذه القرية، ترى، أي قبر ستأخذه معها من هذه الحياة في سيبيريا؟ هل هو في قائمة وصاياها؟
حمل بعض الطعام وسار نحو ضفة النهر لزيارة الأسرى، صحيح أنهم لم يتكلموا لغة بعضهم، لكنهم استطاعوا تخمين ما أرادوا قوله لبعضهم من خلال تعبيرات الوجه والإيماءات. أحياناً كانوا يومئون بنشاط مثل شخص أصم وأبكم حتى يفهم بعضهم بعضاً؛ ليبيّنوا إذا كانوا سعداء أم تعساء. أراد أن يهب الأسرى عملاً طيباً، كما لو أنه لديه قناعة داخلية بأن قوى خفية سترد له الجميل بأن ترعى ناخشون في سيبيريا. وصل قاع المنحدر؛ حيث أمكنه سماع أصوات الأسرى وصوت المياه، ووضع حقيبته على الأرض.

أسرى ألمان - قدم *هربرت* مغطاة بخوش وتنزف إذا أردت الدقة - جاءوا عبر الثلج الأبيض في صيف 1946، في اليوم نفسه الذي كان فيه هاروت عائداً من يوم طيب في سوق إيريفان؛ حيث قايض سمكه المجفف مقابل السكر وأعواد الثقاب، في اللحظة نفسه التي كان عائداً فيها إلى القرية. كان محظوظاً في ذلك اليوم، ما لم يقتل للثعلب، وكان ذلك الحال دائماً، إذا صادف أحدهم الحظ الطيب، فسيكون الآخر لا محالة فريسة للحظ السيئ. فيما بعد، بعد مرور شهر، باع هاروت جلد الثعلب لرجل في السوق في بايازيت، اشتراه دون مساومة ووضع على كتفي المرأة التي كانت في صحبته، محرّكاً يده على الوجه المجدد والعيون الباردة للثعلب واستقر على صدر المرأة. عندما دخل هاروت القرية نادى: *ساتو، ساتو، افتحي الباب، جئت لك بهدية*. ووضع السجادة الملفوفة على الأرض. عند رؤيته أنه الأسير نفسه الذي اكتشفه بداية في تلك الليلة، تذكر كيف كانت ساتو نصف عارية عندما فتحت له الباب بشعر مهوش ونظرة مذهولة. نظرت للسجادة وبدأت في فك لفافتها سريعاً. وعندما برزت منها يد آدمية، توقفت في الحال، ورمته بنظرة حانقة وبدأت تفك اللفة بحرض أكثر. *رجاء، هل يمكنك أن تجلب لـ ساتو المسكينة هدية مختلفة أحياناً؟ تظل تجلب لي جثثاً طوال الوقت*. في تلك الليلة مازحها، *ماذا يمكنني أن أقول؟ هذا قدرك*. في تلك اللحظة، كان وجهها المحبط نصف النائم مضحكاً. وبخ نفسه متذكراً: *ماذا كانت فائدة هذا الفعل المتعاطف الذي أقدمت عليه، إذا كان سيقود إلى تدميرك وتدمير القرية؟*. نظر مرة أخرى باندهاش إلى الأسرى الذين كانوا يتخطفون السمك والضفادع من بعضهم بعضاً على ضفة النهر. *أتساءل لماذا يبقون على أولئك الرجال هنا؟ ما الدور المهم الذي يمكن لأولئك البؤساء أن يقوموا به؟* على مسافة قصيرة كان كل من أوينز ورجل الشرطة يقدمان الدخان لبعضهما. اكتشف هاروت عمر أوينز حديثاً فقط، وتعجب لماذا ظنه في التسعين في أول يوم تقابلوا فيه. ظل يظن ذلك حتى بعد أن اغتسل وشف شعره وكسب بعض الوزن. واعتقد الشيء نفسه حتى بعد زواجه. لم يلاحظ هاروت، وعيناه مسلطة على ضفة النهر، أن العربية والحصان أثاروا الغبار في أثناء مرورهم به، ثم توقفت. استدار نحو سهيل الحصان. حياه رجل الشرطة، *صباح الخير*. تعرف عليه، كان *أرسين* الضابط الذي اعتقل ناخشون وأخذها بعيداً. رد عليه: *صباح الخير، عرفت أنك ستعود*، تحدث معه كما لو أنهما يعرفان بعضهما من سنوات، وتقابلا ليشربوا كأساً معاً،

رأيت حلمًا عدت أنت فيه. ضحك رجل الشرطة البدين، *لا يوجد طريقة أرخص للالتفاف والمرادغة من حلم، في الواقع التجول هنا يقتلني في كل مرة*.
لماذا أتيت الآن؟ حياة من التالية التي تريد أن تقسدها؟
لكن لماذا تلومني؟ كل ما فعلته كان...
أوه، نعم، أعلم أنك بريء، أنت ملاك، ملاك الموت لقريتنا قال ذلك ووبخ نفسه في عقله، لماذا أهان ملك الموت هكذا؟ ماذا لو لم يغفر له جبريل رئيس الملائكة تلك الإهانة؟
عظيم، الآن عليّ أن أجد مكانًا للاختباء من السماوات.. نزل من العربة بحالة مزاجية وسار للجانب الآخر من الطريق، رافعًا يده تحت نبع الماء على جانبي الطريق، وأطبق أصابعه حتى صارت حمراء من البرد، وشرب قبل أن يجلس على صخرة قريبة. قال بصوت حنون لـ هاروت:
لا تبدو الأشياء على ما يرام بالنسبة لك صديقي. *ما الخطأ الذي ارتكبته؟*
ماذا غيره؟ أبقيت على كل أولئك الناس وأشار بذراعه للقرية، كان الأسير خافيًا كل هذا الوقت على السلطات السوفييتية*. سأله متشككًا، أوه، حقًا؟ وأنا كنت أظن أنني أنقذتهم. تتغير القوى الحاكمة سريعًا في نهاية المطاف، لو أن خمسة من أهل القرية ماتوا دفاعًا عن الجيش الأبيض، فهناك عشرة ماتوا من أجل الاتحاد الثوري، وعشرون ماتوا من أجل الجيش الأحمر.. فلن يكون هناك أحد باقٍ في هذه القرية الآن أخي، لكني حميتهم، وأبقيت عليهم من أجل السلطة الحقيقية*.
صار صوت رجل الشرطة أجش من الغضب، *ماذا؟ هل تعني مملكة الرب؟ انس هذا.. أبعد اسم الرب من رأسك بني هاروت، هذا لن يجدي نفعًا*. أطاعه *مؤكد سأبعده.. لا يوجد ما هو أسهل من ذلك*.

أحس الرجل بالسخرية في صوته وتحول لونه للأحمر غضبًا في الحال. *جرائمك عديدة يا هاروت، عديدة.. اتخذت القرار بمحض إرادتك لتتفي شخصًا، يقولون إن الكلاب المتوحشة افترسته. *صدقني، كان مُفترسًا ومنهوشًا قبل حتى أن يصل هنا.. آلاف الأفواه تغذت عليه قبل أن تحظى الكلاب بفرصتها*. *أنت لا تشعر بأي شفقة عليه؟* *أعرف أنه كان يرثى له. لا يوجد حظ أسوأ من أن يكون مصيرك ممزقًا إلى أجزاء، وتجبر على مغادرة الحياة في مكان، ويكون قبرك في مكان آخر، لكن..*.

وقف رجل الشرطة نافد الصبر بحيث استطاع هاروت إدراك فداحة ما أقدم عليه. *كان هذا بمثابة جلب جثة من دولة عدو*. فهم ما قصد بقوله، لكنه قاوم قائلاً: *لكن لا يمكن لومي على ذلك، وصلوا هنا وهم لا يزالون يحملون جثامين ذكرياتهم.. وجثامين مصائرهم الذاتية، زحفوا إلى هنا في انتظار المساعدة؛ لذلك ساعدتهم*. تدمر رجل الشرطة وجز على أسنانه قائلاً: *هاروت، أوه أيها المسكين.. تبدو رجلاً طيبًا، لكن.. سيبيريا.. بغض النظر عن رؤيتي للأشياء، يبدو أن نهايتك ستكون في سيبيريا*.

في تلك الليلة وضعت بقرة أوينز مولودًا؛ عجلين كلاهما ذكر، ما أثار استياء أوينز. كيف يربي عجلين ذكرين؟ ما الذي ليفعله بهما؟ واحد كان جيدًا، إذا كان بصحة جيدة، يمكن استخدامه لمعاشرة الأبقار في القرية، لكن لماذا يضيع العلف على الذكر الثاني؟ ولا يمكنه الحفاظ عليه من أجل لحمه. فللذكور رائحة خاصة حتى إنه لا أحد يجده شهياً. ارتدى صندله وهو يدير الأمر في عقله، *هاروت حكيم مثل ثعبان، سأذهب إليه وأطلب منه تدبير الأمر*.
كان الباب يصدر صريرًا في المفصلات عندما أرجحته الرياح. *ماذا يجري هنا؟* سار إلى العتبة

بعدها دار حول البيت فاحصًا الباب المغلق للإسطنبول. تبدو الأرض كاليثيم، والريح لا تزال تصدر نفس المذكرة من صرير المفصلات الصدئة للباب.. احتشد قلبه بفكرة، لكنه لم يجرؤ على دخول البيت، ونادى على الجيران. *لقد اختفى هاروت!*، جرى هاروت الصغير حافيًا بسرعة، *لا يمكن أن يحدث ذلك!*، تنهد أوينز، *الحياة شيء حزين يا ولدي، الأشياء التي تحدث هنا دائمًا هي التي لا يمكن أن تحدث*.

اجتمع الجيران كلهم، بداية طرقتوا على الباب. انتظروا. طرقتوا مرة أخرى. وانتظروا مرة أخرى. ثم وضع أوينز رأسه في مدخل الباب. *هاروت؟*، وجرب مرة أخرى، *هاروت؟* لم يكن هناك رد. نظر بخوف للناس من حوله، ورأهم خائفين، فأمرهم: *دعونا نذهب* ودخلوا كلهم. كل شيء كان في مكانه. لم يكن السرير مرتبًا، كان واضحًا أن رقد فيه لينام. لم يكن هناك شيء على طاولته.. لا أطباق، ولا مذكرة، فقط تقاحة مقضومة.. في البداية فحصوا الغرف، ثم خلف الأبواب، وتحت الحزمة الخشبية، وفي القبو، وفي الإسطنبول وفي المعلف. كل شيء كان في مكانه، لكن هاروت اختفى، بدا الأمر كما لو أنه لم يوجد هنا قط.

ماذا.. هل صعد إلى السماء أو شيء من هذا القبيل؟ *ماذا تظنه، قديسًا؟ ماذا عن زوجته، ما كان اسمها هناك في الجوار الأعلى..* *أراد المتكلم أن يشاركهم سرًا ما،* *أو الابنة التي تشبهه في الحي الداخلي.. أولئك الأتراك الملاعين!* هناك نوع من البراءة لا علاقة له بكونك رجلًا أو امرأة، ولا حتى بكونك كائنًا بشريًا. القديس ليس شخصًا لا يعاشر أحدًا أو لا يحب أحدًا؛ القديس هو شخص يحمل عباءة حتى النهاية. عندما يموت الناس، يتركون أجسامهم الثقيلة على الأرض، ويحملون أوزانهم الخفيفة للسماء.. إذن، أين الجنة؟*

استنتج أوينز: *لا بد أنهم اعتقلوه، كانوا يهددونه بسبيبيريا، ألم يفعلوا؟* بالطبع الثعابين ليست شيئًا جديدًا في هذه المنطقة، لكن لا أحد يتوقع شيئًا مثل هذا من الثعابين. إهانة الطاعة بهذا الشكل؟ وذلك أيضًا، في حالة أن تملك السم والغضب معًا. لكن الألماني ضحك، ولفافة من التبغ الخام بين أسنانه، وإحدى عينيه مغلقة من الدخان، وهو يقول نكتة ويمدد الثعبان من الرأس للذيل. قاس مسافة قصيرة تحت الرأس، وجزء صغير فوق الذيل وخرس سكينًا للقيام بالمهمة. لم يكن الأمر وكأنه لم يوجد أي ثعابين هنا من قبل. هذه قرية في الجبال، وهناك ثعابين تحت أساسات أي من بيوتها. وهناك أناس أبقوا على طبق خاص في حدائقهم يحتوي اللبن من أجل الثعابين، أو أولئك الذين عزفوا على آلات فلوت خاصة لتلك المخلوقات، وتكلموا إليهم. *عزيزتي الحية، أختي الحبيبة..* كانت الثعابين تستحم في اللبن وتشرب منه، ويغفون على أنغام الفلوت. كانوا يرقدون في حديقة *هامو* مثل قطع من الحبال بينما يجيئون ويذهبون. كانت هناك أماكن معينة على قمم الجبال العارية؛ حيث كانت نساء شجاعة يتجرأن على جمع البقايا الجافة من بين أجسام الثعابين، كانت بمنزلة أدوية مثل سمومهم، مرةً ونحيفة مثل أقدام طائر، حتى إنه كانت هناك واقعة في تاريخ القرية، حين وقع ثعبان في غرام امرأة! لذا فالزواحف في كلمة- لم تكن شيئًا جديدًا.

لكن مع مجيء الألمان تدمرت سمعة الثعابين. بدأوا في اصطياها وأكلها. وجمع هاروت ناس القرية، بعد فترة قصيرة من ظهور السجناء، وقال: *انظروا جميعًا، علينا أن نطعم السجناء، وإلا سينتهي بنا الحال بدون أي ثعابين أو ضفادع. ماذا نملك غير هذا؟ ثعابين، وضفادع، وتلك الجبال.. سأهب لهم بقرتي*، وسحب بقرته بحبل حول عنقها وأعطاهما إلى *مارجوش*، *احلبها

وقدمي لهم اللبن المخثر والجبن كل يوم.. لا بد أن نشعر بالأسى عليهم، فهم كائنات بشرية، طالما ولدوا فلا بد أن يعيشوا*. خطف قلوب الناس بهذه الخطبة، وقام أطفال القرية بإلقاء البطاطا الحلوة للسجناء قبل العدو عاندين للقرية، وهم خائفون من الكلمات الأجنبية التي سمعوها، استمر ذلك حتى ظهر السمكري الأحذب في القرية، وتبعته كلاب الصيد إلى هناك.

ظهر الأسرى الألمان في القرية عام 1946 -هكذا، بسعالهم الدائم، وخشخشة رئاتهم، مع كل أزيز- عندما عاد هاروت من العالم الخارجي ووجد رجلاً قدمه محشورة في فم ثعلب. عندما ظهروا تذكر المهاجرون أن الأتراك استخدموا أسلحة ألمانية أثناء المذابح، وأن اثنين منهم قُتلا في تلك الليلة نفسها، دون رغبة منهم أن يفعلوا. بالنسبة للباقيين منهم كانت مناسبة لتعلم جملة جديدة. كان الجميع يهتفون بالكلمة العدائية التي اعتادوا سماعها من رجل الشرطة *موكوش*؛ سنيل، لكن الفلاحين أهل القرية لم يحبوا الألمان، كانوا مختلفين عنهم بشدة. ما أن يمسكوا بثعبان نحيف، أمكن للقرية بأكملها سماع صراخهم الجنوني. *حسنًا..* قالها أولئك الذين يقطنون بيوتًا على ضفة النهر، *هل يمكنك أن تكون سعيدًا بينما أنت أسير*؟. *سجين.. سجين.. هل حقًا أبقى موكوش عليهم أسرى*؟، سخروا منه بالإشارة إلى فضيحة أن زوجته هربت وتركته مع ثلاثة أطفال، وأنه لم يقتلها، لا هي ولا عشيقها.

كان موكوش يأخذهم كل يوم إلى ضفة النهر ويراقبهم من فوق منحدر التل، لم يكن لديهم ما يقومون به في الشمس، كانوا يرقدون على بلاطات الصخور، وكانوا يزحفون في المطر تحت تلك البلاطات مثل الديدان، وكانوا يختبئون في الرياح خلفها. في الجو المشمس كانوا يصيدون الثعابين والضفادع، ويسلخونها تمامًا عند ضفة النهر، ويشوونها ويأكلونها. كانوا يهتفون ويدعونه لتناول وجبة معهم. فيتمتع مع نفسه: *اغربوا عن وجهي.. أنتم قطع بالية لا قيمة لها من..* كان ينادي على أوينز، ويجلسان متجاورين، وكان يثير غثيان موكوش بقوله: *عليك أن تخشى أن يسوء الأمر، الضفادع والثعابين هي لا شيء.. أولئك الرجال سيأكلون الفئران أيضًا. أشعر بالقشعريرة من التفكير في الأمر*، ويحك كتفيه بيديه اشمزازًا. *انظر* أشار أوينز إلى أحد السجناء الذي انتحى جانبًا وجلس يأكل ساندوتشًا كان يحمله سرًا، مستندًا إلى جدار *توشيك*، وهو ينظر بمحبة للاوز هناك. *ماذا تظنه فاعلاً*؟، هز رجل الشرطة كتفيه، *لا أدري..* يقولون إنه يدرس سلوك الإوز، فهو عالم، يكتب ملاحظات أينما استطاع، على الأوعية الفخارية للمهاجرين، وعلى الرمال، وعلى جدران البيوت، رغم أنني تمكنت من إيجاد الكثير من الأوراق وأعطيتها له.* *حسنًا، إذا كانت دراسة الإوز تجعلك عالمًا، فما الذي يجعلك إن قمت بدراسة الإنجيل*؟ *أبرز أوينز إصبعًا من يده، وسخر من أساليب العالم الغربية. ضحك ضحكة مكتومة وأخرج علبة النشوق خاصته، أخذ حفنة منها ووضعها على أنفه، ثم قدم العلبة إلى موكوش عارضًا عليه بعض النشوق.

ذلك ما يحدث عادة، يجلسون على المنحدر، ويتبادلون الحديث، ويطحن أوينز ذلك التبغ الجاف بلطف، ويخلطه مع الفلفل الأسود، والهيل، والقرفة، ويحكهم بقوة، ويضع بهارات جلبت من إيران، التي كان ليكتب أسماءها بحروف صغيرة، ويضعها في جيب هاروت يوم يذهب إلى العالم الخارجي، كان يعد مزيجه ويخزنه في أكياس جلدية صغيرة، كانت تحتوي على ذهبه في حياته السابقة. كان يستنشقه، *هذه بها قرنفل، أو أضفت بعض الهيل إلى هذه*. يمد رجل الشرطة يده باتجاه الكيس الجلدي، ويضع سبابته وإبهامه فيه ويأخذ مسحة، ودون أن يفتحها يرفعها لأنفه

ويستنشق المزيج كله. كانت نكهة حلوة، أو مرة، أو قوية تشتعل وتدغدغ رأسه وحلقه. ينظر للسماء بعيون مبللة، محدقًا في الشمس تمامًا لتدغدغه حرارتها أيضًا، يسرع من عملية السعال .. *كح كح!* . كان كل شيء داخل المزيج يختلط بمخه ويفرز منه للخارج في منديله. يتواصل العطس مرتين، ثلاث أو خمس دقائق وأحيانًا لعشر دقائق حتى. *أه.. شكرًا لك هذا يمنح المرء بعض الخلاص*. كان موكوش يقولها بامتنان، منهكًا بعد أن تجف الدموع من عينيه. بين الحين والآخر كان رجل الشرطة يقف على قدميه، ببساطة ليبقى الجميع على أطراف أصابعهم، ويصرخ في السجناء الذين يصطادون الضفادع ويأكلون السمك، *شنيل!*.

استنشق موكوش. تدغدغ أنفه ونظر إلى أوينز بعين دامعة وقال: *كل هذه السنوات لم تقل شيئًا واحدًا عن نفسك، ممن تخاف الآن؟ اختفى هاروت.. وإنه لأمر سيئ بالطبع أنه اختفى*. عرف موكوش أن ماضيهم جميعًا كان متشابهًا، انتهت حكايات حياتهم مع شفرة جنود ياتاجان، لكن التفاصيل رغم ذلك ظلت مثيرة للاهتمام. حتى الآن مهما كرر سؤاله وبحثه في الأمر، كان أوينز يتنهد ببساطة ويقول: *فليرحمني الله..*، وأحيانًا كان ليقول: *لقد رحمني الله بهذا الشعور بالمجد*، حتى إن رجل الشرطة لم يستبعد فكرة أنه من المحتمل أن تكون عائلته بأكملها قد نجت، وأنه تمكن من جلب كل ذهبه معه.

*كان اسم أخي الأصغر إسرائيلي، لكننا محونا آثار ذلك الاسم وحولناه إلى اسم آدمي؛ سميناه *إسرو*، وقدم أوينز العذر لأبيه بأنه كان لديه العديد من الأبناء، حتى لم تعد أسماء الناس العادية كافية، وكان عليهم أن يلجؤوا لأسماء البلاد. *كان طفلاً لطيفاً وضحكاً، أحب الحلوى، بينما قرصة النحلة كانت تجعله يبكي..*. كانت لهم عائلة في أرمينيا، وفي جورجيا أيضًا، لكن أولئك ماتوا في صحراء سوريا. تبين أنه الوحيد الذي نجا.. قال: *وبأي ثمن..*. وحك قشعريرة جلده على الذراع. تمكن عندما اجتاح الأتراك بيته من الاختباء. *ظللت أراقب عيون ذلك التركي*. الشيء الوحيد المرئي من مكان اختبائه. كان أحول العينين، محتمل أنه رأى كل شيء اثنتين، لا بد أننا بدوننا له جماعة أكبر مما كنا عليه فعلاً.. لكن بعدها انفصل الاثنان عن بعضهما، جالت اليمنى بالسقف، بينما درات اليسرى حول ما كان يقوم به*.

حسنًا.. وتتهد تتهيدة ممتدة بدت كأنها تمتد من الأرض للقمر، ثم تجاوز ذلك الجسد السماوي. *هل تعرف كم عدد الناس الذين يفترض أن حياتي حلت محل حياتهم؟ حتى لو عشت منئي عام، لن أكون قد سددت ديني للرب*.

حسنًا كان الرب رحيماً بك. *نعم بالتأكيد* ورسم الصليب على نفسه، *المجد للسيد المسيح*. *هل كنت تبكي سرًا؟* *كانت هناك أنهار من الدم تتدفق.. من ذا الذي ليهتم بقطرات الدموع التي ذرفت؟*

إذن ماذا كنت تفعل؟ منذ بدأ الكلام، كان يحاول فهم في أي وقت بالتحديد كانت رحمة الله به. *كنت أنظر في عيون الأتراك*.

ولكم من الوقت ظللت مختبئاً هناك؟
لا أدري، كانت عائلتي عبارة عن قرية بأكملها مليئة بالناس.
وأثناء ذلك الوقت...

رأيت عيون الأتراك... *لربما أمكنك أن ترى أكثر لو كنت تحركت قليلاً في المكان*.
ماذا أيضًا كنت لأريد أن أرى؟ رأيت عيون الأتراك.

قتلوهم جميعاً؟

على أساس نظرتي في تلك العيون، نعم، لكن المجد لرب السماوات.. كان رحيماً بي.
قام موكوش فجأة وصرخ: *أوه، بربك.. كيف أمكنك أن تخدع نفسك هكذا؟ أين ترى تلك الرحمة؟*
قام أوينز أيضاً، واستند على اللوح تحته، الذي جلسا عليه وقال: *حسناً، ماذا لو كانت تلك العيون
عيوني أنا؟* هكذا اتخذ خوفه هذا الشكل. واصل أوينز: *أنت نجوت ما أن تصل هناك، سيقابلونك
في القاع، ويأخذونك إلى الكهوف، ويعطونك مسدسات، وربما بعض الطعام أيضاً.. جريت إلى
الجبال لزمّن طويل، طويل، طويل جداً.* واصل موكوش، *لا بأس، لقد أثمرت معاناتك؛ فقد
نجوت.*

*البقاء حياً، وأن تتجو ليس الشيء ذاته، لم أصل للجبال، تأمرت عليّ الطرق، لا يهم لكم من
الوقت ولأي مسافة عدوت وفي أي اتجاه، فسينتهي بك الحال في الصحراء على أي حال، لكن لكي
تتقد نفسك عليك الوصول للجبال، على الأقل لسفوح التلال..*
ما الفرق؟ في نهاية المطاف تمكنت من الوصول إلى جبالنا.
*في الوقت الذي وصلت فيه إلى جبالكم كنت قد رأيت الكثير جداً.. كان الوقت متأخراً على
النجاة!*

لكن، حسناً، أنجأك الرب. نظر رجل الشرطة للسماء بشيء من العاطفة، *المجد للسيد حقاً،*
وتأكدت كلماته بسلسلة من العطس، نوبة كاملة. عندما انتهى من العطس أخيراً ووضع منديله في
جيبه، لاحظ بعض الحركة على الجانب الآخر من النهر. بداية، اهتزت أوراق الأشجار، كما لو أن
أحداً أمسك بها وكان يجرها في الهواء. انفلق القصب ومال يساراً ويميناً، حدق رجل الشرطة
ليرى ممراً ينفتح، والعشب يرتجف من تحته. ضحك، *هاروت، هاروت.. ونحن كنا نتخيلك هناك
في سيبيريا!*

صدم أوينز، قام وحدث هو الآخر بقوة، *هذا لا يمكن أن يحدث!* ضحك رجل الشرطة، *حسناً
يبدو أنه لم يذهب بعيداً في نهاية المطاف.* دافع أوينز عن نفسه، *حسناً، بالتأكيد لم يتمكن من
الوصل للقمر مع ساقه المؤلمة تلك.*

هل كانت غلطة موكوش؟ هل كان هو الذي يتوجب عليه إبلاغ الأبناء لأهل القرية، وأن يزرع
ذلك الشك السعيد في عقولهم؟ أم أنها ببساطة كانت محض مصادفة؟
بعدها بيومين صدرت الأوامر للأسرى لبناء جسر. ظهرت العربية نفسها والحصان نفسه؛ هذه
المرّة تحمل رجلين مختلفين، جاء مع ملف أزرق. جلسا على الصخور الملساء على ضفاف النهر
لوقت طويل، وفردا الخريطة التي كانت في الملف على ركبهما، وشرحا لهما كل شيء. أكد ذلك
أهم شيء، بمجرد أن يستكمل بناء الجسر، سيعود الأسرى لوطنهم.

كان الوقت في الأسبوع الثاني من فصل الربيع، لكن الشتاء لم يكن قد خطط للرحيل، تماماً مثل كل
عام، كان يختبر صبر الربيع. كحيوان على وشك الإخفاء، كان الشتاء يضرب برياح باردة على
الأبيض الأبدى لقمم الجبال مرة أخرى أخيرة، بخشونة وعنف، بطريقة رجولية قدر الإمكان. كانت
بعض أجزاء الأرض بالقرب من سفوح التلال، تتفتح أثناء الساعات الدافئة للنهار، رطبة ولزجة،
مثل وليد.

كان الثلج -أثناء الشتاء- يمسك بقوة ويتشبث بالماء، ويخنقه، فيصلبه في كفيه. عندما ذاب الجليد
في الربيع، كان الماء يتفجر ويتدفق بتياره البارد نحو وجه السماء.

يمكن أن تبدأ الفيضانات من أي مكان؛ السماء، أو قمة جبل، أو الذكريات، أو من القلب. كان الفيضان حرًا ليختار مصدره كما مساره.. كان الجميع شاهدين على هذا. أذابت الشمس الجبال وعرت القمم من ثلوجها خلال نصف يوم. وتدفق الثلج الأبدي للأسفل، كاسحًا الجسر، نصف المبني، وجرف معه السجناء إلى البحيرة. عند مجيء الفيضان الآخر، لم يكن لديهم فكرة عما يجري. كل ما سمعوه كان الصوت وذلك الجزء نصف المبني من الجسر وقد اختفى. هذه المرة لم يعان السجناء. لكن في المرة الأخيرة كانوا قد تفرقوا بسبب الفيضان، الذي كان مثل انفجار قوي. واندفع للأسفل، في اللحظة ذاتها التي كان فيها الجسر على وشك الانتهاء؛ بقيت خطوة واحدة أخرى وسيتم وصل الضفتين.

كان رجل الشرطة يقول لهم إن ما يحدث من فعل هاروت، لكن أهل القرية لم يكونوا ليصدقوه. *ضميره لم يكن يسمح له بهذا.. فما زال السجناء يأكلون الطعام الذي تركه لهم.*
حسنًا، عانى هاروت كثيرًا بسبب ضميره.. أراد أوينز لـ هاروت أن يكون حيًا وقريبًا، وبذلك يكون الشخص الذي يفعل هذا من الجانب الآخر للنهر.*

*من كان؟ ماذا كان؟ ماذا كان هدفه؟ الشيء الوحيد الذي كان واضحًا أن سجينًا واحدًا فقط هو من بقي حيًا. كان السجين العالم المحظوظ الوحيد؛ لأنه كان مع الإوز -كالمعتاد- وقت الفيضان، ولم يكن فوق الجبر عندما انفجر. لكن بعد أن قضى على أصدقائه، أُجبر على ترك كل شيء، والبدء في بناء الجسر مرة أخرى؛ لأن هذا كان الشرط الوحيد لإنفاذ أمر عودته للوطن، وهو استكمال بناء الجسر. عندما أنهى الألماني وضع آخر حجر، وقف أهل القرية خلفه، منتظرين إكمال العمل حتى يستطيعوا الانتقال للضفة الأخرى.

ارجعوا للخلف، لا تعوقوا عمله، كان رجل الشرطة يقودهم للخلف من حيث كان يقف السجين،
ارجعوا للخلف.. لماذا أنتم جميعًا هنا؟ الضفة الأخرى مثل هذه تمامًا.. لا يوجد جديد هناك، ارجعوا للخلف، عودوا لبيوتكم.

لكنهم لم يغادروا، لم يكن الشاطئ ما يحوذ اهتمامهم. كان هاروت. أرادوا أن يروا إذا ما كان هو، أم أنه كان يتعفن في صحراء سيبيريا، بعضهم كان مقتنعًا أن أبناء عودته حقيقية وكانوا يسخرون من أنفسهم، *وكنا هنا، حزاني أنه مات.. ألا تعرف بالأمر..*، ابتسم موكوش ابتسامة متكلفة،
إذن فقد هرب، ممن؟ مني؟ أنتم لا تعرفونني جيدًا بما يكفي.

أنت تعتقد أنه لا يستطيع الهرب منك وقد تمكن من الهرب من الأتراك؟ استنتج أوينز الأمر برضا. *لا بد أنه صعد إلى الجبال.. هو تدريجيًا يقترب من الرب*.
قال أهل القرية حالمين: *بالتأكيد أنه وجد نهرًا جديدًا، لا بد أنه بدأ قرية جديدة* موقنين بما تمنوا. بصق رجل الشرطة بغضب، *حسنًا، دعه يرحل، دعنا نرَ إلى أي مدى يمكنه أن يذهب.. كل الأنهار التي مرَّ بها لها ثلاثة ضفاف*.

كان تقدم السن يعامل أسو بقسوة، بكل قسوة في الواقع. كانت عظام صدره تصدر صريرًا، وأفكاره تتمزق، وينعقد لسانه في عقد، تلتف حول كلماته.. بطبيعة الحال لم تكن عيناه كما كانت من قبل، ولا سمعه كما كان.. ما بقي من جسده بأكمله، كان قلبه شابًا يهاجمه حتى الموت عندما كان يغازل النساء، وكن يستجبن له بازدراء، *تصرف بما يناسب سنك أيها الرجل العجوز؟*
وحتى ينقذ نفسه من أن ينقره الدجاج والنساء، كان يصحو قبل انبلاج الفجر ويضع بعض اللافاش lavash على شال ملون تركته أمه خلفها، وينشر عليه بعض الجبن الريفى والأعشاب، ويلفه،

ويضعه في حزمة على ظهره، وينطلق ليسحب الأغنام ليحلبها مع الأطفال.. وكانوا يراقبون الأغنام، ويراقب هو الأطفال. كان يتمتم، جالسًا على صخرة، مراقبًا الأغنام ترعى: *لا تذهبوا باتجاه غروب الشمس، أوه أيتها الشمس..* كانت السماء صحراء حمراء، تنزلق السحب وطيور اللقلق على صفحة السماء، وأقدامها تحترق. ظهر قمر غير مكتمل النضج حقًا مثل لطفة أو بقعة في السماء، لكن لا ظلام بعد، ولم تعرف السحالي متعددة الألوان بعد الفرق بينما واصلت الانزلاق، متزاحمة فوق الطحالب.

من جدار منخفض تُرك في حالة دمار جزئي -ترقد بضعة صخور بعضها على قمة بعض- سقطت ما يشبه كرة من السحالي، على الأرض وانتشرت عبر العشب. تنهد أسو، *يا للحظهم* متذكرًا كم كان نشيطًا وسريعًا على قدميه مثل طفل. كان الهواء يغلي بحرارة الشمس، بروائح الحريفة للعشب المزهر والزعر المتجمد، وحوّل الهواء إلى زيت الميرون المقدس. أوركسترا من جادج أو صراصير الليل أصدرت صريرها أو عريرها في الهواء المعبأ وحوّلتها إلى شظايا، وذاب غروب الشمس في كل جزء من السماء والتربة.

صرخ أحد الرعاة، وفي يده نتف من زهر اللؤلؤ، منتظرًا العصاراة لتندفق من ساقها حتى تصبح علكة طبيعية، *جدي، انظر! ما هذا؟ دبية؟*

أمسك بالزهرة في اتجاه الشمس الغاربة، منتظرًا أن تجف العصاراة حتى يستطيع نتف زهرة أخرى، ويحصل على عصارتها أيضًا، ويمسك بها في اتجاه الشمس.. حتى يمتلك عصاراة كافية سينفخها، ويجففها، وتتحول للون البني، وبعدها يمكنه نقفها - وهو ما سيؤلم جلد أصابعه - ثم يلوكها.

حقد الرجل العجوز بعينيه، لكن عندما استطاع فقط رؤية ظلال سوداء في المنطقة التي أشار إليها الصبي، همس: *كل شيء ممكن..* *لا تخف*، صحح له الصبي الراعي الذي مدّ بصره وحقد في ذلك الاتجاه، *إنها أستجو أو أستجيك.. هي ذاهبة مع الألماني إلى مكان ما*.

راقبوا بسلام، بينما ذهب الزوجين أسفل المنحدر خلف الصخور. *سمعت أنهما تزوجا* ضحك الصبي الصغير، *أقصد، أن ذلك أقل ما أمكننا عمله، لقد ضربناه بشدة، وتحول إلى كتلة من

الطين، لكن هل يمكنك تخيل الأمر؟ تبين أنه أحب أستجو منذ اليوم الذي وفد فيه إلى قريتنا الصغيرة، ولم نعرف بالأمر قط. يقولون إنه شرب دماء ثعبان مبكرًا، وتمتع بالعودة إلى الورا قبل أن يتبرع هاروت ببقرته، ولا كنا تبرعنا بدجاجنا لهم. اللعنة عليهم.. عندما اكتشفنا الأمر، كنا غاضبين منه بشدة! من كان يظن نفسه؟ وماذا أراد من ذلك الإوز؟ أحببت رؤية *خاكو* في ذلك اليوم - هو أبله- لكن يا له من قوي! ضربة واحدة منه وكان ذلك الشاب على الأرض بعضها ولم يستطع الوقوف بعضها كان قد تسطح تمامًا. *الشباب المسكين، لماذا كان عليك أن تضربه؟ في النهاية لم يكن أول رجل في حياتها، أقصد، هذه أستجو من نتحدث عنها هنا!*

*جدي، لا أصدق ما أسمع، ماذا جرى لكرايمتك؟ من ذا الذي يهتم إن كانت عاهرة.. هي عاهرتنا، ليس كذلك؟ لا أحد غيرنا له الحق فيها.. نحن ضربناه، ثم جررناه من قدميه إلى حظيرة الدجاج.

هل تذكر كيف عامل دجاجنا وأوزنا؟ ساعدهم على التكاثر، وعالجهم عندما مرضوا، ودرس سلوكهم، وعانقهم وقبلهم، ويعلم الله ماذا أيضًا.. تخيل وجهه عندما ذبحنا ذلك الدجاج هنا! فعلنا ما أمامه تمامًا.. تعلم كيف يأخذ الناس دورهم لإلقاء حفنة من التراب على مقبرة؟ حسنًا، نحن فعلنا الشيء نفسه كل واحد أخذ واحدة- دجاج، وأوز، وبط، انتزعنا أعناقهم، ورميناها له وهو راقد

على الأرض. ماذا كان اسمه ثانية؟ كونراد؟ نعم، كونراد.. كنا نضحك بغضب عندما ننادي اسمه؛ كونراد! لكنه رقد فقط هناك في ركن الحظيرة ولم نبال، واصلن رمي الدجاج والإوز والبط المذبوح إليه.. كانت الطيور بلا رأس تنقلب وتنتثر دماءها وريشها في كل اتجاه، وتدور عمياء وترتطم بالأشياء. في البداية كان لسيقانها قوة، لكن بعد عدة دورات تتبعج ركبها من الجري ثم يسقطون على الأرض، ويتصرفون كما لو كانوا يجذفون قاربًا.. ثم تنفذ قوة أجنحتهم، ويبدوون في التدرج على الأحجار والتراب، وأصدر بعضهم أصواتًا.. ثم ينتفضون مرة أخيرة، وهكذا، ماتوا.. *أبو* أصابه المرض من سحابة الدماء والريش. كان علينا أن نجره للخارج، وتركنا الألماني في حظيرة دجاجه.. كان عليك أن تراه مرتعدًا، كان يرتعد يا ربي! دع ذلك يكن درسًا له..*.

تتهجد الرجل العجوز، *أوه، هاروت، هاروت، كم نحتاج إليك! لو كنت أنت وسوطك هنا، هل كانوا سيخاطرون بالتصرف هكذا؟ أي فقد، أيها الوغد..*، التقت إلى الصبي، *كل هذا الدجاج..*، نظرت عينه بعيدًا، قافزة فوق الصخور، فاقدة المسار ثم وجدته مرة أخرى، متسللة لأعلى ومواصلة متابعة الألماني مع أستجو.

أنتم أيها المساكين، لماذا كان عليكم أن تصبوا اللعنة على أنفسكم في سنكم الصغيرة هذه؟ هذا هو السبب في أننا حملنا الصخور في مكانه وبنينا الجسر لأجله.

سأل أسو بنشكك: *أتساءل إذا ما عرف السجين كيف حدث هذا؟*، وقد رأى كيف التقط الألماني الفتاة من تحت إبطها برقة ليساعدها على الخروج من المسافة بين الصخور التي علقت فيها. *من ذا الذي أخبره؟ وكيف فسروا له الأمر؟* قال الصبي ليظهر أنه فهم أيضًا ذلك الذي يدعونه الحب، وحك المنطقة أعلى شفته التي صارت داكنة دون أن ينبت فيها أي شعر، *أتساءل كيف استطاع كلاهما الكلام مع بعضهما؟*

أوه، أيها الأبله..، دهش أسو من سذاجة الصبي، *مثل تلك الأشياء تقال دون كلمات، وكذلك.. أحيانًا ما يربط سوء الحظ شخصين بأقوى من رباط الحب*.

توقفت أستجيك والألماني بالقرب من لوح كبير، ورقدا على تلك الصخرة الدافئة ليلتقطوا أنفاسهم، ثم واصلوا السير. كان متأكدًا الآن من الأمر، كانوا ذاهبين إلى مقبرة أم ناخشون. استطاع الألماني هزيل الجسد التحرك بالكاد، واستند بذراع على كتف أستجيك، لم يكن واضحًا إذا ما كان يحتضنها أم يستند عليها.

انهارت أستجيك، عندما وصلوا إلى المقبرة الحجرية، وضعت رأسها على الصليب الحجري، ثم ملست عليه، ومحتمل أنها تمتعت بشيء ما.

هي تقول وداعًا لأمها، تأثر العجوز بالمشهد، *آه، كم هو عالم قاسٍ..*.

أضاف الصبي: *ربما تودع هاروت أيضًا.. كان بمنزلة أب لهم*.

تأوه الرجل العجوز: *أوه، هاروت، هاروت..*، ومسح عينيه الدمعيتين، *لقد اختفيت وتحولت إلى أسطورة*.

أعني، إذا كان عليه أن يذهب؛ لأمكنه على الأقل أن يترك حكاية فارسو خلفه..، حمى الصبي عينيه بيده بينما نظر. ساروا بالفعل مسافة كبيرة بعيدًا عن الصليب الحجري. ساروا منفصلين الآن وبإيقاع أسرع، دون أن يعيروا انتباهًا للصخور الحادة في طريقهم، والأشواك العالقة بينها، والثعابين والعقارب المهرولة حولها. كان عليهم عبور جبل، وتلّين والحقل بينهما، وإلا استخراج

الذئاب من مكانها بمجرد أن يحل الظلام. همس الصبي متعمداً الأذى لهما: *بالتوفيق*. قال أسو بمرارة، بينما راقبهم يغادرون بعينيه التي لا ترى شيئاً: *دعهم.. يحملون ثقل مصيرهم بعيداً عن قريتنا*.

كانوا بالفعل عند سفح التل، وتبدل مظهرهم إلى بقعة سوداء. في تلك المسافة، لعقت البحيرة سنام التل ورباه، وعندما سحبته للخلف، خُفت وراءها ريحاً باردة على الألواح الرطبة للصخور.

1 قطعة من الخلي تلبس أو تعلق داخل المنزل، المفترض أنها تطرد الأرواح الشريرة.

2 طائر بحري كبير الحجم.

3 تلك الألقاب، مثل الألقاب الأرمينية، تتكون من جذور تركية، مثل جارجيوزيان تأتي من الاسم التركي *الرجل ذو العيون السوداء*.

4 كلاب صيد الطرائد الكبيرة تشبه الذئاب.

5 شراب مصنوع من زبادي تمت إسالته ليصبح كالماء.

6 هي آلة موسيقية وترية خشبية، تشبه العود، ذات عنق طويل، وجسم أصغر من العود، وتنتشر في مختلف الثقافات، في شرق البحر الأبيض المتوسط، والشرق الأدنى، ومنطقة آسيا الوسطى.

7 وحش أسطوري.

8 إشارة إلى كتاب المرثيات لـ جريجوري ناريك، وهو راهب وشاعر أرمني عاش ما بين القرن العاشر والحادي عشر.